اقرأ

محمد عصام المرشدي

الثورة العرابية

وأثرها في تطور الشعب ونهضته

دار المعارف بمصر

الثورة العرابية

وأثرها في نهضة الشعب

مجدي وهبان

محمد عصام المرشدي

الثورة العربية

وأثرها في تطور الشعب ونهضته

اقرأ ١٨٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٨٨ – أغسطس سنة ١٩٥٨

« نال هذا الكتاب جائزة وزارة
التربية والتعليم سنة ١٩٥٧ »

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

مقدمة

عمل الاحتلال الإنجليزى الغاشم الذى نكبت به البلاد عقب الثورة العرابية على تشويه أحداث هذه الثورة الوطنية واتهام زعمائها بالتمرد العسكرى ، وعصيان أوامر الخديو والخروج على طاعته وهو الحاكم الشرعى للبلاد . وقد ظلت أحداث هذه الثورة غامضة ومبهمة نوعاً بالنسبة للشعب حتى قيام الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ، فاستبانت واتضحت المواقف الخالدة لثورة أحمد عرابى الوطنية . ومن المؤسف أنه فى العهود الماضية كانت هذه الثورة لا تشغل إلا سطوراً معدودة فى كتب التاريخ المدرسية مما جعل كثيراً من الأجيال المتعلمة يجهل الشىء الكثير عن هذه الثورة مع أنها تعتبر من أهم أحداث تاريخنا القريب وأكثرها خطورة ، ولعل ذلك يرجع إلى أن ملوك العهود البائدة من أسرة محمد على كانوا يرون فى الثورة العرابية تمرداً وعصياناً من الشعب المصرى على حكامه من الأسرة العلوية ، ولأن الأحداث الحقيقية لهذه الثورة كانت تظهر بوضوح خيانة الخديو توفيق الصارخة التى عادت بأوخم العواقب

على الشعب المصرى، وتبيين نذالته التى كانت السبب الرئيسى فى الاحتلال الإنجليزى لمصر .

لذلك رأيت أن أجعل موضوعى بحثاً تاريخياً عن أحداث الثورة العرابية وأسبابها ، وأثر هذه الأحداث فى نهضة الشعب المصرى وتقدمه وخاصة فى نهضته السياسية والاجتماعية ، كما تناولت النهضة النيابية فى مصر وتكلمت عن تاريخها ، وسردت أدوار تدخل الاستعمار الإنجليزى فى شئون مصر الداخلية ، الذى انتهى بالاحتلال العسكرى بعد سلسلة طويلة من الخيانات القذرة من جانب الخديو وأتباعه .

أمّا الفصل الأخير من البحث فهو موازنة تحليلية بين الثورة العرابية وثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، أشرت فيها إلى العوامل التى أدت إلى فشل الأولى ، ونجاح الثانية .

ومع أن الثورة العرابية انتهت بالفشل ، ولم تكلل جهود زعمائها بالنجاح على الرغم من كفاحهم العظيم ، فإنى أعتبر هذه الثورة بداية النهضة المصرية الكبرى التى ظهرت بوادرها منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وأنها كانت البذرة والأساس للوعى القومى العظيم الذى نراه حقيقة ماثلة فى أيامنا هذه . وقد كانت تجاربنا المريرة فى هذه الثورة سبباً فى نجاح ثورة ٢٣ يوليو نجاحاً باهراً .

يوليو سنة ١٩٥٨ محمد عصام المرشدى

— ١ —

الثورة

بذور الثورة :

كانت الفكرة القديمة عن الثورة العرابية أنها ليست إلا ثورة عسكرية ، وأن أسبابها الوحيدة هى تحقيق بعض المطالب الشخصية للضباط الوطنيين ، وهذه الفكرة تبعد كل البعد عن الصواب ، فالثورة العرابية هى ثورة قومية ظهرت بوادرها من خلال مطالب الضباط الوطنيين وثورتهم العسكرية ، وإذا بحثنا الظروف التى كانت تسبق هذه الثورة ، وجدنا أنهـا تشير إلى احتمال قيام ثورة شعبية فى أى وقت .

فقد كان الشعب المصرى يقاسى أشد أنواع الظلم ، وأبشع ألوان الاستعباد من حكم الأسرة العلوية ، ويدل على ذلك أحداث كثيرة نذكر منها مأساة تسخير المصريين فى حفر قناة السويس ، فقد استطاع الأجانب وعلى رأسهم ديلسبس التأثير على سعيد باشا بأن يعطى امتياز حفر قناة السويس لشركة أجنبية يرأس ديلسبس مجلس إدارتها ، وكان فى الاتفاق بين الشركة وسعيد باشا أن يقدم هذا العمال المصريين اللازمين لحفر قناة السويس ، ومن أجل ذلك كانت الحكومة تجمع عشرات الآلاف من

الفلاحين من مختلف أنحاء البلاد بالقوة والإرهاب ، وتستعمل التعذيب والضرب بالكرباج مع كل من يقاوم هذا الظلم من الأهالى .. وكانت تدفع بهؤلاء الآلاف إلى مناطق الحفر فى الصحراء القاسية تحت سيطرة واستبداد رجال الشركة الأجانب الذين كان هدفهم الأول تحقيق ذلك المشروع مهما كانت الوسيلة ، ولو كان ثمن ذلك أرواح المصريين ، وكانوا يعاملونهم بأقل مما يعامل به الحيوان ، ويجبرونهم على العمل طوال اليوم من مشرق الشمس إلى سدول الليل دون شفقة أو رحمة ، ولم يكن العمال المصريون يتناولون أجراً ولو تافهاً نظير ذلك العمل الشاق المهلك ، ولم يكن مع ذلك يصرف لهم من الطعام إلا ما دون الكفاف . وقد هلك فى هذه المأساة عدد ضخم من المصريين نستطيع معه أن نقول : إن حفر قناة السويس كان مذبحة هائلة وعملية تعذيب بشعة على نطاق واسع .

ومن مظاهر استعباد الشعب فى عهد إسماعيل قبيل الثورة العرابية أن إسماعيل حين اعتزم إرسال حملة عسكرية لاحتلال الحبشة وذلك لإرضاء نزواته الاستعمارية وحبه للسيطرة ، اغتصب من الفلاحين محصولاتهم وغلالهم دون أن يدفع فيها حتى ثمناً بخساً ؛ لكى يمون بها هذه الحملة التى كان الغرض منهـا الاعتداء على حرية شعب مسالم ، كما استولى على نحو عشرة آلاف

من الجمال والبغال والحمير المملوكة للشعب ، ليستعملها فى نقل المؤن والعتاد الحربى ، وكان نتيجة لذلك الظلم الفادح — أن ظل الفلاحون مدة طويلة فى فقر شديد مهددين بالمجاعة . هذه جوانب من صور الاستبداد والظلم التى كان يقاسيها الشعب تحت حكم الأسرة العلوية .

ومما ساعد فى سوء حالة الشعب أن البلاد كانت تعيش فى أزمة اقتصادية عنيفة منذ أوائل عهد إسماعيل نتيجة للديون التى اقترضها إسماعيل من « البنوك » والمرابين الأجانب من غير داع على الإطلاق ، فلم تكن للبلاد حاجة إلى هذه الدّيون ، فقد كان مركزها الاقتصادى حسناً جداً ، وكانت مواردها وإمكانياتها الذاتية تغنيها عن الاستدانة ، بل ترتفع بمستوى البلاد الاقتصادى وبمستوى المعيشة للشعب لو أن مالية البلاد فى أيد أمينة حكيمة .

إذاً فهذه الديون لم يكن لها إلا سبب واحد هو إسراف الخديو إسماعيل وتبذيره وفساد حكمه ، ومما يبين شدة إسراف إسماعيل الخيالى أنه أنفق على حفلات افتتاح قناة السويس ما يزيد على مليون جنيه ونصف مليون ، كما أنه أنفق ملايين أخرى من الجنيهات عند ما قام برحلة إلى فرنسا فى سنة ١٨٦٧ .

وإن أبلغ دليل على سوء الحالة الاقتصادية فى ذلك العهد

أن ديون إسماعيل الخارجية بلغت فى عهده ما يزيد على مائة مليون جنيه استدانها من البنوك الإنجليزية والفرنسية ، كما حصل على بعضها من المرابين الأجانب بأرباح باهظة ، وذلك فضلا عن الديون الداخلية التى استدانها إسماعيل من الشعب المصرى . وإنا لندرك مدى نكبة البلاد بهذه الديون إذا عرفنا أن مصر دفعت ما يزيد على مائتين وخمسين مليوناً من الجنيهات أرباحاً لهذه الديون .

ومما زاد الحالة سوءاً أن إسماعيل قد رهن جميع موارد الدولة المالية ، كإيرادات الحكومة من السكك الحديدية ، وإيرادات الجمارك ومعظم أنواع الضرائب التى كانت تحصل من الشعب بل أدت هذه الأزمة الاقتصادية إلى أن يبيع نصيب مصر فى أسهم شركة قناة السويس وهى تقرب من نصف عدد جميع الأسهم بثمن بخس جداً ، فقد باعها لانجلترا بأقل من أربعة ملايين جنيه ، وأدى ذلك إلى أن تصبح إنجلترا هى المتحكمة فى قناة السويس وفى إدارتها .

ومن أثر هذه الأزمة المالية على الشعب ، أن الانهيار الاقتصادى فى البلاد دفع الحكومة إلى فرض ضرائب جديدة غير عادلة على الفلاحين ، واستعملت وسائل بالغة القسوة فى تحصيل هذه الضرائب مما أدى إلى سوء حالتهم . وعلى الرغم

من ذلك كانت الأزمة الاقتصادية تزداد سوءاً وأصبحت البلاد على شفا الإفلاس ، وهنا أصبحت الفرصة سانحة للاستعمار الأجنبي لكي يتدخل فى شئون مصر الداخلية على هيئة استعمار اقتصادى يسيطر على مالية البلاد، وظهر ذلك حين ضغط الأجانب على الخديو إسماعيل لتأليف هيئة تضم مندوبين من الدول الدائنة تشرف على مالية البلاد ، وتبحث فى طرق تسديد الديون ، وقد عرفت هذه الهيئة باسم (لجنة صندوق الدين) ثم ازداد ذلك التدخل الأجنبي وزادت سيطرة الأجانب على اقتصاد مصر حين قبل الخديو إسماعيل تعيين مراقب إنجليزى وآخر فرنسى للإشراف على مالية البلاد . بل ان تغلغل الاستعمار الأجنبي بلغ درجة فرض فيها الإنجليز والفرنسيون على الخديو إنشاء وزارة مختلطة يكون فيها وزيران أجنبيان أحدهما إنجليزى للمالية ، والآخر فرنسى للأشغال ، وتدخلوا أيضاً لتعيين نوبار باشا — وهو معروف بتشيعه للأجانب — رئيساً لتلك الوزارة ، وسارت هذه الوزارة فى سياسة ترمى إلى تثبيت النفوذ الأجنبي فى مصر فعملت على فصـــل عدد كبير من الموظفين المصريين وتعيين كثير من الأجانب فى الوظائف الرئيسية والمرافق الحيوية حتى تتم لهم السيطرة الشاملة على إدارة البلاد وكان نتيجة لذلك أن زادت الامتيازات الأجنبية

بصورة لم يسبق لها مثيل ، واستغلها الأجانب أبشع استغلال ، وكانوا يكونون الثروات الضخمة ويجمعون الأموال الهائلة من استغلالهم لهذه الامتيازات ، وذلك دون أن يدفعوا ضريبة للحكومة المصرية . ومن النتائج السيئة أيضاً لهذه الامتيازات أن الأجانب تدفقوا على مصر بشكل خطير حتى أصبح عددهم يزيد على مائة ألف ، وهى نسبة كبيرة بالقياس إلى تعداد المصريين فى ذلك الوقت ، كما أن وجود المحاكم المختلطة التى كان أغلب قضاتها من الأوربيين ، وتحيزها فى أحكامها دائماً للأجانب — ساعد على استبدادهم بالمصريين وعلى ازدياد نفوذهم وسيطرتهم .

ولم تتحسن الأحوال تحت الإشراف الإنجليزى الفرنسى بل إنها كانت تتدهور وتزداد سوءاً حتى أن الحكومة عجزت عن دفع مرتبات الموظفين المصريين ، وفى نفس الوقت استمرت تدفع للموظفين الأجانب مرتبات ضخمة ومكافآت خيالية . كما أن هذه الوزارة المختلطة أحالت بتحريض من الوزيرين الإنجليزى والفرنسى ألفين وخمسمائة من ضباط الجيش المصرى إلى الاستيداع بعد أن توقفت مدة طويلة عن صرف مرتباتهم ، ومع ذلك لم تحل ضابطاً واحداً من الشراكسة إلى الاستيداع ، فقد كان للضباط الشراكسة — بما لهم من الحظوة لدى الخديو

السيطرة الكاملة على الجيش وكانوا يتولون أهم مناصبه وأرقاها ، وفى نفس الوقت كان الضباط المصريون محرومين من الترقية ومن الامتيازات العديدة التى يختص بها الشراكسة .

كل هذا ساعد على بذر بذور الثورة فى نفوس الضباط والشعب ، وأشعل نار الوطنية بينهم ودفعهم للكفاح من أجل حقوقهم المغتصبة ، وكان يقود كفاح الشعب المصرى الطبقة المثقفة والضباط الوطنيون . ومن المؤكد أن الأزمة الاقتصادية كانت سبباً فى قيام أزمة سياسية عنيفة ، فإن الشعب كان يعتقد أن سوء الحالة فى مصر يرجع إلى سوء نظام الحكم ، وهو الحكم المطلق الاستبدادي الذى لم يكن فى ظله قانون يحمى للشعب حقوقه أو يرفع عنه المظالم ، بل إن إسماعيل لم يورط البلاد فى تلك الديون الهائلة التى عادت على الشعب بأسوأ العواقب وكانت السبب الوحيد فى سوء الحالة الاقتصادية إلا فى ظل الحكم المطلق المستبد ، فلو كان هناك نظام دستورى يمثل الشعب فيه تمثيلا صحيحاً بوساطة مجلس نيابى يكون الخديو مسئولا أمامه عن أفعاله وتصرفاته ما غرقت البلاد فى هذه الديون وما استهدفت للانهيار الاقتصادى .

ومما يدل على مدى التذمر والاستياء الذى اجتاح الشعب فى هذه الفترة الحرجة التى نشطت فيها الحركة الوطنية ، وظهرت

مقاومتها للتدخل الأجنبى واستبداد الخديو ووزراته — تلك المظاهرة العسكرية الشعبية التى حدثت فى فبراير سنة ١٨٧٩ حين أحيل عدد كبير من ضباط الجيش المصريين إلى الاستيداع وذلك بحجة التوفير والاقتصاد ، فقد توجه نحو ستمائة ضابط ومعهم ألفان من الجنود يتبعهم جمهور غفير من الشعب إلى وزارة المالية فى قصر النيل للاحتجاج على ذلك ، وبلغت بهم الثورة والغضب مبلغاً جعلهم يقتحمون الوزارة ويحتلون مبانيها وضربوا نوبار باشا ووزير المالية الإنجليزى ، وكانت هذه الثورة سبباً فى سقوط وزارة نوبار ، ولا يخفى أن هذه المظاهرة العسكرية الشعبية كانت البادرة الأولى التى تشير إلى توقع حدوث ثورة عسكرية شعبية كبرى وهى ثورة عرابى التى حدثت فى سنة ١٨٨١ .

الكفاح الشعبى :

وقد كان للشعب تاريخ حافل فى الكفاح من أجل القضاء على الحكم الاستبدادى المطلق ، وقد بدأت الحركة الوطنية تشتد فى أواخر عهد إسماعيل وتطالب بالدستور والنظام النيابى ، وتكونت عدة أحزاب وهيئات سياسية تضم الزعماء الشعبيين ، والطبقة المثقفة فى البلاد ، وأشهر هذه الأحزاب هو الحزب

الوطنى الذي تولى عرابى رياسته بعد نشوب الثورة العرابية ، وجمعية مصر الفتاة التى كان يديرها الزعيم الشعبى الكبير عبد الله النديم . وظهرت الصحف الشعبية بمظهر دل على وطنية عظيمة فقد أخذت تنتقد تصرفات الحكومة الخاطئة وتندد باستسلامها للتدخل الإنجليزى الفرنسى فى أخص شئون البلاد الداخلية وكانت تنشر المقالات الحماسية ، وتطالب بالحرية والنظام الدستورى وجعلها أساساً لحكم البلاد .

ومما ساعد على ازدهار الحركة الوطنية وانتشارها ، وجود جمال الدين الأفغانى بمصر فى هذا الوقت ، وكان لمبادئه وتعاليمه أثر كبير فى تطور الحركة الوطنية وتقدمها ، ومن أهم مبادئه مقاومة الاستعمار الغربى الذى يريد أن يفرض سيطرته على الشرق ويتحكم فى شئونه منتهزاً فرصة ضعفه وانحلاله ، وكان يرى أن الطريق الوحيد لتحرير الأمم الشرقية هو قيام اتحاد إسلامى قوى يربط بينها برباط وثيق ويساعدها على الوقوف أمام سيطرة الاستعمار الغربى ، وكان إيمان جمال الدين الأفغانى بالنظام الدستورى كما كانت دعوته لتطبيق هذا النظام فى الشرق لإصلاح حالة شعوبه — خير مشجع للزعماء المصريين والهيئات الوطنية للمطالبة بالدستور وإنشاء مجلس النواب ، وقد اعتنق مبادئ جمال الدين الأفغانى تلاميذ كثيرون من مشهورى

المصريين ، نخص بالذكر منهم الشيخ محمد عبده ، وعبد الله النديم ، ومحمد المويلحى . فهؤلاء وكثير سواهم مهدوا بآرائهم وأفكارهم لقيام الثورة العرابية ، وكانوا دعاة وأنصاراً لها فيما بعد . ولا يخفى على أحد الدور الكبير الذى أداه عبد الله النديم فى « الدعاية » للثورة العرابية بخطبه الوطنية التى تلتهب حماسة ، يلقيها على جماهير الشعب فى مختلف أنحاء مصر باعثاً فيهم الوطنية ومنمياً الوعى القومى بينهم ، حتى أنه لقب بحق (خطيب الثورة العرابية) ، كما أنه أشرف على تأسيس جريدة لنشر الأهداف الوطنية فى مختلف أنحاء البلاد والحث على التمسك بها والإصرار على تحقيقها .

وقد نجحت هذه الحركة الوطنية نجاحاً باهراً فى أواخر عهد إسماعيل نتيجة لتكتل القوى الشعبية الوطنية واتحادها فى مطالبها الوطنية ، وكان نتيجة انبعاث هذه القوة الوطنية الجديدة أن تقلص النفوذ الأجنبى بعض الشىء ، وسقطت الوزارة المختلطة ، وتألفت وزارة وطنية لا تضم وزراء أجانب ، كما أقيم أول مجلس للنواب تنفيذاً لرغبات الشعب ، وقد نجحت هذه الحركة الوطنية فى مقاومة التدخل الأجنبى فخرج عدد كبير من الموظفين الأجانب من الإدارة المصرية ، ولكن من المؤسف أن هذه الحركة الوطنية لم تستمر طويلا ، فقد تألبت عليها القوى

الاستعمارية الأجنبية بعد عزل الخديو إسماعيل ، ونجحت فى كبتها بوساطة الخديو توفيق الذى ألغى مجلس النواب ليمكنه حكم البلاد حكماً استبدادياً مطلقاً ، ولذلك عين رياض باشا رئيساً للوزارة على الرغم من أنه معروف بميوله للأجانب وتحيزه لهم. وقد كان رياض الساعد الأيمن للخديو فى حكمه الاستبدادى ، فاضطهد الوطنيين اضطهاداً شديداً ، وفى عهده صودرت معظم الصحف الوطنية ثم عطلت نهائياً ، وقبض على كثير من أعضاء الحزب الوطنى البارزين وحكم عليهم بالنفى إلى أقاصى السودان ، كما أن جمال الدين الأفغانى أبعد إلى الخارج بتحريض من الحكومة البريطانيـــة ، ولكن كل هذه الإجراءات لم تقض على الحركة الوطنية الناشئة ؛ فإن الحزب الوطنى وجمعية مصر الفتاة وماشابههما من الهيئات كانت تعقد اجتماعاتها بصفة سرية بعيداً عن رقابة الحكومة ، وتواصل نشاطها الوطنى ودعوتها التحررية التى كان الأعضاء يبثونها فى كل مكان . ومن ذلك أن جمعية مصر الفتاة برئاسة عبد الله النديم تخفت تحت اسم الجمعية الخيرية الإسلامية وواصلت جهودها الوطنية ، كما أن الحركة الوطنية استبدلت بصحفها المعطلة آلافاً من المنشورات السرية التى كانت تغمر بها البلاد .

وفى خلال هذا العهد الاستبدادى وتحت ظلال الإرهاب

التى كان يعيش فيها الشعب المصرى عاد الاستعمار الأجنبى من جديد يفرض سيطرته على شئون مصر ، ويشرف على أموره المالية ، واتسع نطاق الامتيازات الأجنبية ، وزاد عدد الموظفين الأجانب بشكل خطير حتى بلغ عددهم نحو عشر مجموع موظفى الدولة ، وكانوا يتناولون مرتبات ضخمة تكلف الحكومة سنوياً ما يقرب من نصف مليون جنيه ، على حين كان الموظفون المصريون فى أشد حالات الفقر والبؤس، ومن أهم أسباب تذمر المصريين وسخطهم الاستغلال الأجنبى الجشع لمرافق البلاد دون أن يحاول الخديو أن يحد منه أو يقاومه .

ولم تكن القوى الوطنية الشعبية فى مصر تستطيع أن تتغلب على ذلك الحكم الإرهابى ، تحقيق مطالبها ورغباتها ، نظراً لمركز الخديو توفيق القوي ومؤازرة الاستعمار له فى قمع الحركة الوطنية ، وضعف الأمل فى الانتصار على استبداد الخديو توفيق بوساطة القوى الشعبية فقط ، وأصبح النجاح مرهوناً بثورة عسكرية يقوم بها الجيش ، فالجيش بما فى يده من إمكانيات القوة هو الهيئة الوحيدة التى تستطيع تحقيق مطالب الأمة ، كما أنه من غير المعقول أن الجيش لم يتأثر بالدعوة الوطنية فلا ينفعل بها ، ويظل بعيداً عن مجرى الأحداث السياسية فى الوقت الذى كانت جميع طبقات الشعب تتأجج وطنية

وتغلى حماسة ، بل الحقيقة التى يسجلها التـــاريخ بفخار أن الجيش فى ذلك العهد كان خير من يمثل الأمة فما هو إلا مجموعة أفراد من صميم الشعب جمعتهم العسكرية ووحدت بينهم .

لذلك كانت الثورة العسكرية بزعامة أحمد عرابى الانفجار المنتظر والنتيجة المحتومة لاستياء الشعب وثورته المكبوته . ومن الحق حين نصف الثورة العرابية أن نقول : إنها ثورة عسكرية شعبية وليست ثورة عسكرية فقط .

ظهور عرابى وزملائه فى الميدان :

وفى مجال الحديث عن الثورة العرابية يجب أن نتعرض لزعيمها الكبير أحمد عرابى ، فقد كان أحمد عرابى من صميم الشعب المصرى ، ومن الضباط الوطنيين الذين تبنوا الدعوة الوطنية وقاوموا السيطرة التعسفية للضباط الشراكسة على الجيش المصرى ، وساعده على أن يتولى قيادة الضباط الوطنيين وزعامتهم وطنيته الصادقة ، وما كان له من شخصية قوية ، وما كان يملكه من قوة إقناع وبلاغة استطاع بهما أن يؤثر فى نفوس الضباط . وكان يجتمع بمنزله كثير من رجال الجيش الوطنيين ، يتباحثون فى أحوال الجيش العسكرية وفى أحوال البلاد السياسية والعامة ،

ويتذمرون من إساءة معاملتهم وتفضيل الضباط الشراكسة عليهم ، ويتحينون الفرصة المناسبة للمطالبة بحقوقهم وإنصافهم .

كانت الأسباب المباشرة التى أدت إلى انفجار الضباط الوطنيين هى بعض الإجراءات التعسفية الظالمة التى اتخذها عثمان رفقى الشركسى ضد اثنين من كبار الضباط الوطنيين هما الأميرالاى عبد العال حلمى والقائمقام أحمد عبد الغفار ، فاجتمع عدد كبير منهم برئاسة عرابى وتباحثوا فى الموقف ، وقرروا الخطوة الأولى لإصلاح الحال وهى المطالبة بعزل وزير الحربية الشركسى عثمان رفقى ، وإلغاء إجراءاته الظالمة ، وتعاهدوا على الإخلاص للوطن ولأحمد عرابى ، وكتبوا (عريضة) بمطالبهم قدمها عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى إلى رياض باشا رئيس الوزراء ، وفوضوا الضباط الثلاثة فى أن يمثلوهم ويتكلموا بلسانهم ، واتخذوا من الاحتياطات ما يكفل سلامة عرابى وزملائه إذا حاولت الحكومة محاكمتهم والبطش بهم .

وحاول رياض باشا أن يثنى الضباط الثلاثة عن مطالبهم مهدداً ومتوعداً إياهم بأشد العقوبات ، واتهمهم بالتمرد على الأوامر والأحكام العسكرية ، لكن عرابى وزميليه لم يبالوا

التهديد وأصروا على مطالبهم ولم تؤثر فيهم محاولات رياض .

واجتمع مجلس الوزراء وقرر أن مطالب الضباط ما هى إلا تمرد عسكرى وأمر بالقبض عليهم وإحالتهم للمحاكمة العسكرية ، وتولى عثمان رفقى تنفيذ هذه الأوامر . فكون المجلس العسكرى من الضباط الشراكسة والأتراك والأجانب الموالين للخديو ، واستدعى عرابى وزميليه دون أن يخطرهم بالقبض عليهم وبإحالتهم إلى المحاكمة العسكرية ، وفطن عرابى إلى المؤامرة المدبرة لهم ، لأنه كان يعرف أن العناصر الشركسية المسيطرة على الخديو وعلى الجيش — وعلى رأس هذه العناصر عثمان رفقى — لن تقبل هذه المطالب الوطنية ، وسوف تحرض الخديو على رفضها ومقاومة هذه الحركة الوطنية الناشئة فى صفوف الجيش بكل الوسائل ، فاتخذ عرابى وزميلاه من الاحتياطات ما يكفل إنقاذهم من هذه المؤامرة المبيتة ، ثم ذهبوا لمقابلة عثمان رفقى الذى أمر بالقبض عليهم على الفور وقدمهم للمحاكمة العسكرية ؛ لتحاكمهم محاكمة صورية بوساطة بعض الضباط المعروف عداؤهم للحركة الوطنية والضباط الوطنيين ، وعندما علم الضباط المصريون بمؤامرة عثمان رفقى ثاروا جميعاً وتأهبوا وأعدوا فرقهم العسكرية لإنقاذ عرابى وزميليه ، واعتقلوا بعض كبار الضباط الشراكسة حين وقفوا فى طريقهم ، وحاصر البكباشى محمد عبيد وزارة

الحربية بجنوده حيث كانت تجرى محاكمات عرابى وزميليه ، وأمر جنوده باقتحام الوزارة وإنقاذهم ، وهرب أعضاء المجلس العسكرى المعقود حين أحسوا بهجوم الضباط الوطنيين بوحداتهم العسكرية ، وتم إنقاذ عرابى وزميليه وإطلاق سراحهم . وكان هذا هو أول فوز للثورة العرابية ، وتجمعت الفرق العسكرية المختلفة بقيادة الضباط الوطنيين بأسلحتها فى ميدان عابدين احتجاجاً على اعتقال عرابى وإظهاراً لتأييدهم له ، كما تجمع معهم عدد كبير من الشعب ليشاهد هذه المظاهرة العسكرية الوطنية ، وحاول الخديو أن ينقذ الموقف باستعمال القوة لكنه وجد أن فرق الجيش جميعاً تؤيد عرابى وتناصره . وأمام هذا الموقف لم يستطع الخديو إلا أن يخضع لمطالب عرابى فعزل عثمان رفقى الشركسى وعين محمود سامى البارودى المعروف بنصرته للحركة الوطنية ، والضباط الوطنيين ، وألغيت الإجراءات الظالمة التى كان عثمان رفقى قد أصدرها ضد بعض الضباط الوطنيين ، ودفع ذلك الانتصار الباهر الضباط المصريين للتقدم بمطالب جديدة ، لتحسين حالة الجيش الداخلية كالمأكل ، وزيادة مرتبات الضباط والجنود ، نظراً للحالة السيئة التى كان يعانيها الجيش نتيجة لتلاعب بعض القواد الشراكسة بأقوات الجيش ومهماته ، كما طالبوا بإصدار قوانين عسكرية جديدة تصلح من حال الجيش ويجد

فيها الضباط والجنود الإنصاف والعدل ، وقد أجيبت كل هذه الطلبات فتحسنت الحالة الداخلية للجيش ووعدت الحكومة بالنظر فى إصدار القوانين العسكرية الجديدة ، وكانت إجابة الحكومة لهذه الطلبات عاملا مهماً زاد من مركز عرابى فى نفوس الضباط والجنود وزاد من إيمانهم به . ومن المؤكد أن الحركة الوطنية اجتازت مرحلة جديدة عقب انتصار عرابى ، فإن ذلك الانتصار العظيم لفت الأنظار إليه وخصوصاً فى ذلك العهد المليء بالاستبداد ، وأصبح الشعب يحبه ويعتقد أنه الرجل المنشود الذى يخلصه من طغيان الخديو توفيق والتدخل الأجنبى ويحقق مطالبه الوطنية ، وعمل عرابى من ناحيته على أن يتصل بالشعب والزعماء الوطنيين فى اجتماعات كثيرة يبحثون فيها حالة البلاد ومشكلاتها السياسية ، ويفكرون فيما يصلح حالها ويكفل لها حكماً سياسياً بعيداً عن الاستبداد ويضعون الخطط لتنفيذ ذلك . وكان الهدف الأول للزعماء فى ذلك الوقت أن يزيدوا من وعى الشعب الوطنى ، ومن أجل ذلك كان عرابى وزملاؤه يبثون الأفكار التحررية فى مختلف طبقات الشعب عن طريق رجال الدين والعمد والموظفين الوطنيين المتصلين بالشعب ، وقد نجحوا فى ذلك النجاح كله ، وبدأ الوعى القومى والسياسى يظهر واضحاً بين طبقات الشعب وخاصة بين الفلاحين الذين كان ذلك الوعى معدوماً بينهم ،

فأصبحوا يتابعون أحداث البلاد فى اهتمام وحماسة .

إذن نستطيع أن نقول : إن انتصار عرابى فى هذه المرحلة الأولى من الثورة أدى إلى نتيجة مهمة وهى تلاقى الجبهة الوطنية فى الجيش بالجبهة الوطنية الشعبية وظهور قيادة عسكرية شعبية برياسة أحمد عرابى مما كان له أكبر الأثر فى تقوية الحركة الوطنية وازدياد أنصارها ، فإن الشعب بدأ ينظر إلى الجيش على أنه قوة وطنية عظيمة يمكن أن يعتمد عليها فى كفاحه من أجل الحرية .

الصراع بين عرابى والخديو :

غير أن الخديو والقوى الاستعمارية لم تكن ترضى بالطبع عن ازدياد الحركة الوطنية ،وكانت تنتظر الفرصة المناسبة للقضاء عليها ولتشتيت العناصر الوطنية ، وقد حاول الخديو ورجاله أكثر من مرة أن يرشوا كثيراً من رجال الجيش ويستميلوا بعض فرقه ويستعينوا بها على عرابى ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ؛ لوطنية رجال الجيش وإخلاصهم للحركة الوطنية ولتيقظ الضباط الوطنيين ولإحباطهم هذه المؤامرة بحزم وشدة .

وكان الخديو يتردد فى القيام بعمل حاسم يكون فيه القضاء على الحركة الوطنية خوفاً من أن يقابله الضباط بعمل مضاد

يكون فيه تهديد لعرشه ، وكان يفضل أن ينتظر حتى تهدأ الأحوال وتعود إلى ما كانت عليه من هدوء وسكينة ليضرب ضربته القاضية الحاسمة ، ولكنه وجد أنه بانتظاره هذا يعطى لعرابى وزملائه من الضباط فرصة ذهبية ليثبتوا دعوتهم الوطنية ، ولكى يعملوا على تقوية جبهتهم حتى تستطيع أن تقف فى وجهه وترغمه على تنفيذ أهدافهم الوطنية التى تتمثل فى تكوين وزارة وطنية تعمل لصالح الشعب ، وإقامة النظام الدستورى ، وإجراء انتخابات عامة لإنشاء مجلس النواب ، ولهذا وجد أن من الأفضل أن يعجل بمقاومة الحركة الوطنية ، ويعمل على وقف سيطرة عرابى على الجيش وعلى إضعاف نفوذه لدى الشعب منتهزاً فرصة أن الحركة الوطنية ما زالت ناشئة . وتحقيقاً لهذا الغرض عزل محمود سامى البارودى عن وزارة الحربية لأنه أكبر عضد للوطنيين فى الوزارة ، وعين مكانه أحد أتباعه وهو داود يكن ، كما عزل بعض كبار الضباط والموظفين الموالين لعرابى ووضع مكانهم بعض أتباعه ، وبدأ الخديو عن طريق داود يكن ينفذ خططه للقضاء على الحركة العرابية ، فقد أصدر داود يكن أوامره المشددة بمنع اجتماعات الضباط أو تركهم لمراكزهم العسكرية فى الثكنات فى أى وقت ، كما أمر بمنع تدخلهم فى الأمور السياسية أو حتى التشاور والتناقش فيها ، كما حاول

بكل الوسائل أن يقيد حرية الضباط الوطنيين وخاصة عرابى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار ، ففرضت عليهم رقابة شديدة من جواسيس الخديو لتمنع اتصالهم بعضهم ببعض كما تمنع اتصالهم بالشعب لبث الدعوة الوطنية ، كما هدد باعتقال كل من يخالف هذه الإجراءات ومعاقبته ، وكانت هذه الإجراءات ترمى إلى الحد من نشاط عرابى والضباط الوطنيين وبذلك يقضى تدريجياً على الحركة الوطنية ،وكان فى ظنهم أن وجود جو يسيطر عليه الإرهاب كفيل بأن يئد الثورة العرابية فى مهدها ، ويستطيع الخديو حينئذ أن يتخلص بسهولة من عرابى وأنصاره دون أن يثير أزمة شديدة فيها تهديد له ، غير أن هذا المسلك دفع عرابى لكى يعجل بالقيام بأهم أحداث الثورة العرابية وهى مظاهرة عابدين الكبرى التى قدم فيها مطالب الأمة .

كان أهم جزء فى خطة داود يكن للقضاء على الثورة العرابية أن يعمل على نقل فرق الجيش العسكرية الموالية لعرابى من القاهرة — وهى مركز الحركة الوطنية — إلى أنحاء بعيدة متفرقة فى البلاد ؛ ليفرق شمل الضباط الوطنيين ويقضى على اتحادهم الذي يعتبر العامل الأساسى فى قوتهم ، ثم ينقل بعض الفرق الموالية للخديو إلى القاهرة مكان القوات الوطنية لتكون قوة فى يد الخديو يستطيع بها أن يسيطر على الموقف ويحوله لصالحه.

وبدأ داود يكن ينفذ خطته ، فأصدر أمره إلى إحدى فرق الجيش « ألاي القلعة » بالإنتقال إلى الاسكندرية ، وفطن الضباط الوطنيون إلى المؤامرة المبيتة لتفتيت وحدتهم وتفريق شملهم ، فأجمعوا على رفض تنفيذ هذه الأوامر ، ووجد عرابى أن الفرصة سانحة لكى يقضى على مؤامرات الخديو ودسائسه ، ولكى يعمل على تنفيذ مطالب الشعب ، فقرر القيام بمظاهرة عسكرية كبرى أمام قصر الخديو بعابدين تشترك فيها جميع وحدات الجيش ، ويقدم فيها مطالب الأمة. وحاول الخديو ورجاله بكل ما وسعهم من جهد أن يعملوا دون قيام هذه المظاهرة العسكرية التى تصيب نفوذ الخديو ومكانته بضربة قاصمة ، ولكن زعماء الجيش صمموا على القيام بالمظاهرة والتجمع فى عابدين .

مظاهرة عابدين العسكرية :

وفى اليوم التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ سار الجيش فى عرض عسكرى كبير إلى ميدان عابدين حيث احتشدت فرقه المختلفة بأسلحتها وذخيرتها ، كما حضرت فرق المدفعية وذخيرتها بمدافع الميدان الثقيلة واتخذت مكانها حول القصر ، وكانت قد احتشدت حول الميدان الآلاف من جماهير الشعب وقد امتلأت نفوسهـــا حماساً وحمية مبعثهما جرأة الجيش ورهبة

الموقف ، ومما زاد من سوء مركز الخديو وجعل موقفه حرجاً أن الحرس الخاص بالقصر قد ترك مراكزه وانضم إلى قوات الجيش المحتشدة فى الميدان والمحاصرة للقصر .

عندما تم احتشاد الفرق المختلفة بقيادة أحمد عرابى أقبل الخديو توفيق لينظر فى طلبات الجيش ، وتكلم عرابى نيابة عن الجيش والشعب مطالباً بإسقاط وزارة رياض المستبدة ، وتعيين وزارة وطنية يرضى عنها الشعب ، وتأليف مجلس للنواب يمثل الأمة ، كما طالب عرابى بتقوية الجيش وزيادة عدده .

ورفض الخديو هذه الطلبات زاعماً أنه ورث هذه البلاد عن آبائه وأجداده ، فرد عليه عرابى بكلمته المشهورة :

« لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذى لاإله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » وكاد الموقف يتحول خطيراً بين الخديو والجيش ، فتكلم المستر كوكسن القنصل الإنجليزى فى مصر نيابة عن الخديو (مما يدل على مدى السيطرة الإنجليزية على الخديو ومدى خضوعه لرجالها) وحاول القنصل أن يهدد عرابى ويتوعده ، وهو يلمح إلى أن الإنجليز قد يتدخلون لحماية الخديو والمحافظة على سلطانه ، فبين عرابى أنه لن يخضع للتدخل الإنجليزى وسيقاومه بكل وسائل القوة ، وفكر عرابى وزملاؤه تفكيراً جدياً فى عزل الخديو إن هو

أصر على رفضه لمطالب الشعب ، وظهرت هذه النية واضحة وإن لم يقلها عرابى صراحة ، وأحس الخديو توفيق بذلك ، ودفعه الخوف من أن يفلت العرش من يده على أن يوافق مرغماً على إجابة هذه المطالب وتنفيذها .

وبدأ ذلك على الفور فأسقط وزارة رياض باشا تمهيداً لقيام وزارة وطنية .

كان نجاح هذه المظاهرة العسكرية من أعظم انتصارات الثورة العرابية ، كما أنها أظهرت للخديو بوضوح مدى قوة الحركة الوطنية وتأييد الجيش والشعب لأحمد عرابى ، وبينت له أيضاً عجزه الشديد عن أن يقف وحده بدون مساعدة خارجية من الدول الأجنبية لإحباط هذه الثورة ، ومن ناحية أخرى اطلع الاستعمار الانجليزى على قوة النهضة المصرية وتأكد له أنها ستكون من الأخطار التى تهدد مصالحه فى الشرق ونفوذه فى مصر بالذات .

أما الشعب فقد قضت هذه المظاهرة على ما كان يكنه أفراده للخديو من هيبة وأزالت مكانته من النفوس ، لتزيد من التفافهم حول عرابى وتأييدهم له ، وأصبح الشعب ينظر إلى الجيش نظرة المنقذ من الظلم والاستعباد .

وعقب سقوط وزارة رياض استشار الخديو العرابيين فيمن

يخلفه فى رئاسة الوزارة ، وأظهرت العناصر الوطنية ميلا إلى تكليف شريف باشا رئاسة الوزارة ؛ لما له من الخبرة فى النظم الدستورية التى تساعد على إقرار النظام الدستورى بسرعة وفى الحال ، ولمواقفه الوطنية الماضية من إنشاء مجلس النواب ولماضيه النزيه .

وفى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ أى عقب مظاهرة عابدين مباشرة كلف شريف باشا تأليف الوزارة ، وعين محمود سامى البارودي وزيراً للحربية فيها ، لثقة رجال الجيش به ، ولأنه ناصرهم من قبل ، وعمل على تحقيق مطالبهم حين كان وزيراً للحربية فى وزارة رياض باشا .

رأى شريف باشا أن يبتعد الجيش عن التدخل فى السياسة وينتقل بعيداً عن العاصمة حتى يعود الجو السياسى إلى الاستقرار والهدوء ، وحتى لا يتخذ الاستعمار من الثورة العرابية ذريعة للتدخل فى شئون مصر الداخلية ، فإن المصالح الاستعمارية الإنجليزية لم تكن تخفى على أحد فى ذلك العهد .

كما أن الدولة العثمانية رأت الفرصة سانحة لتعيد سيطرتها على مصر إلى ما كانت عليه من قبل منتهزة الخلاف بين الزعماء العرابيين والخديو ، فأرسلت بعثة تركية للنظر فى أحداث الثورة العرابية الأخيرة ، بدعوى أن للدولة العثمانية الحق فى الإشراف

على شئون مصر الداخلية بحجة أن مصر ولاية عثمانية تابعة لها والواقع أن تركيا لم تكن لترضى عن هذه النهضة المصرية التى تبعد مصر عن قبضتها ونفوذها ، وفشلت البعثة التركية فشلا ذريعاً فيما جاءت من أجله بعد أن وقف العرابيون موقفاً مشرفاً متظاهرين بالتضامن مع الخديو ،وبأنه لاوجود لفرقة أو انقسام فى البلاد ، كما عاونوا وزارة شريف فى إثبات أن حالة البلاد هادئة وأحوالها مطمئنة ولا يوجد فيها أى اضطرابات .

ونتيجة للمحاولات الأجنبية العديدة للتدخل فى شئون البلاد منهزة الخلاف بين الخديو والشعب ،ورغبة فى تهدئة الموقف وتهيئة الجو للإصلاح اتفق شريف باشا وعرابى ومعه باقى الزعماء على انتقال الفرق العسكرية بعيداً عن العاصمة ، وانتقل فعلا كثير من الفرق بقيادة الزعماء الوطنيين . وقد ظهرت حماسة الشعب وحبه للجيش والتفافه حول قادته فى المظاهرات الوطنية الكبرى التى قام بها الشعب توديعاً للفرق العسكرية ، فقد أقيم كثير من الحفلات الحماسية لتوديع الضباط والجنود الراحلين ، ألقيت فيها الخطب الوطنية العديدة ،ودوت الهتافات بحياة الجيش وحياة عرابى منقذ الوطن ، وكان استقبال عرابى فى الشرقية حيث مقر فرقته الجديد بجوار الزقازيق استقبالا حافلا يجل عن الوصف ،ويدل على مدى تقدير الشعب للثورة العرابية فى شخص زعيمها الوطنى الكبير .

— ٢ —

آثار الثورة

بدأت نتائج الثورة العرابية وآثارها تظهر واضحة فى شكل الإصلاحات الكثيرة التى قامت بها حكومة شريف الوطنية والتى تمت فى وقت قصير .

النهضة القضائية :

ومن هذه الإصلاحات المهمة : تعديل النظام القضائى على أسس جديدة سليمة ، وإنشاء المحاكم الأهلية ، وكفالة حرية القضاء وعدم التدخل فى شئونه. وقد كان لسوء النظام القضائى فى العهود الماضية أثر كبير فى استعباد الشعب ، فقد كان الحكام السابقون يستغلونه فى نفى الوطنيين إلى أقاصى السودان واضطهاد الأبرياء ، وكان الشعب عاجزاً عن أن ينال حقوقه المهضومة بوساطة ذلك القضاء . وقد نجحت الثورة العرابية نجاحاً باهراً فى إنشاء قضاء أهلى نزيه يكفل للمصريين العدل والمساواة ويحميهم من الظلم الذى سيطر عليهم طوال العهود الماضية

النهضة التعليمية :

واتجهت الثورة إلى النهوض بالتربية والتعليم اتجاهاً جدياً فإن الحركة التعليمية فى مصر كانت مصابة بركود شديد ؛ لأن الحكام السابقين لم يهتموا بها ، بل إن بعضاً منهم عندما وجد أن الطبقة المثقفة المتعلمة فى مصر هى التى تقود الحركة الوطنية وتدعو لها — أيقن أن انتشار التعليم وازدهاره يساعد على نمو الوعى القومى بين أفراد الشعب ويجعلهم يتمردون على سلطة الحكام ويقاومون استبدادهم ، مما يضعف من نفوذهم وسطوتهم ، إلى جانب المتاعب الكثيرة التى تنشأ عن ذلك . لذلك عملوا على القضاء على النهضة التعليمية التى كانت فى مصر ، ولم يسمحوا إلا بوجود التعليم الدينى فى الأزهر ، واقتصر العدد القليل من المدارس الذى سمحوا بوجوده على تخريج عدد من أنصاف المتعلمين ليشغلوا الوظائف الصغيرة التافهة فى دواوين الحكومة ، على حين كان الأجانب هم الذين يتولون معظم الوظائف المهمة والحيوية فى الدولة . وكان على من يرغب فى التعلم والتثقف من المصريين أن يسافر إلى الخارج ولم يكن يستطيع ذلك إلا النادر ، لما يتطلبه السفر إلى الخارج للتعلم من نفقات باهظة

ومشاق جمة . وهكذا انحط التعليم فى مصر وانتشر الجهل وخصوصاً فى المناطق البعيدة عن العاصمة حيث كانت نسبة المتعلمين نادرة جداً . وحاولت حكومة شريف الوطنية إصلاح التعليم فخصصت له ميزانية كبيرة وأنشأت المدارس فى مختلف البلاد وخاصة الأطراف النائية منها ، وعملت على تشجيع التعليم فيها بترغيب أبناء هذه الأطراف فى العلم . ومن المؤكد أن هذه السياسة التعليمية تعد أساساً متيناً يدفع بالثورة العرابية وبنهضة الأمة إلى الأمام ، ويساعد على استغناء الدولة عن الموظفين الأجانب الذين يسيطرون على مرافق البلاد الحيوية ويمكنون للنفوذ الاستعمارى . ومما يدل على انتشار الوعى التعلميى ، وإدراك زعماء الثورة العرابية والشعب أهمية التربية والتعليم — أنه عند إنشاء مجلس النواب وعقب انعقاده مباشرة كان من أهم قراراته تعميم التعليم الابتدائى فى جميع انحاء القطر المصرى ، وهى خطوة كبرى فى النهضة التعليمية ، تعمل على إتاحة الفرصة لتعليم الأجيال الناشئة وتثقيفهم ، وعندما نعرف مدى ما يحتاج إليه هذا المشروع من جهود ضخمة وميزانية هائلة نظراً لقلة عدد المدارس الابتدائية قبيل هذه الخطوة ، وللعجز الشديد فى رجال التعليم — ندرك تماماً إلى أى حد وصل الاهتمام بالتربية والتعليم والعناية بهما .

النهضة النيابية وتاريخها :

وينبغى أن نتعرض الآن لأهم أثر من آثار الثورة العرابية وهو قيام النظام الدستورى فى مصر وإنشاء مجلس النواب ، وفى هذا المجال نتكلم عن تاريخ الحياة فى مصر خلال ذلك العهد .

بدأت الحكومة الوطنية الشعبية تطالب بالنظام الدستورى مطالبة جدية منذ عهد إسماعيل ، عند ما ظهرت عيوب الحكم المطلق وأثره السيئ على الشعب ، فقد كان الشعب يرى أن النظام النيابى فى مصر يمكنه من أن يحقق مطالبه ويفرض رغباته على الخديو ويحد من سلطته المطلقة التى كانت كما بينا من قبل السبب الرئيسى فيما حاق بمصر من أضرار . ومن أجل ذلك اتحدت القوى الوطنية الشعبية فى البلاد وطالبت فى إصرار شديد بإقامة مجلس للنواب تكون الوزارة مسئولة أمامه عن تصرفاتها ، ورأى الخديو إسماعيل أن معارضة هذا المطلب الوطنى يجر عليه كثيراً من المتاعب وأنه من الخطر أن يقاوم الحركة الوطنية القومية ، وخاصة فى الوقت الذى تحيط به المشكلات الخارجية وأهمها مشكلة الديون ، كما وجد أن الديون الجسيمة التى ورط البلاد فيها يستطيع أن يلقيها عن كاهله ويضعها على عاتق

المجلس النيابى ، وعلى الوزارة التى ستكون مسئولة أمام ذلك المجلس ، فوافق على مطالب الشعب الخاصة بإنشاء المجلس النيابى وإقرار النظام الدستورى . وعلى الرغم من أن الدستور فى هذا العهد لم يكن يكفل سلطات واسعة لمجلس النواب — إلا أنه كان خطوة نحو النظام الدستورى الصحيح ، ولم يخل انتخاب النواب من تدخل الخديو إسماعيل وأتباعه مما أثر على حرية الانتخاب ونزاهته ، ثم بعد ذلك لم يشأ أن يستقل النواب فى شئون البلاد ، فكان كثيراً ما يتدخل فى أعمال المجلس ويحاول أن يجعل من النظام الدستورى فى مصر نظاماً صورياً دون أن يكون للنواب السلطة الفعلية ، ولكن المجلس كان يضم بعض النواب الوطنيين الذين قاوموا تدخل الخديو وطالبوا بتوسيع سلطة المجلس النيابى وزيادة اختصاصه حتى يمكنهم القيام بالإصلاحات اللازمة للبلاد ، وقد ظهر نشاط ذلك المجلس قوياً فى سنة ١٨٧٩ .

وكان شريف باشا من أكبر المهتمين بإقرار النظام الدستورى فى مصر والعمل على نجاحه ، وكان يريد أن يمنع هذه المهزلة فى المجلس النيابى وبعبارة أدق يمنع تدخل الخديو فى أعماله ، لذلك بذل جهوداً كبيرة فى وضع مشروع دستور جديد يزيد من سلطة المجلس واختصاصاته ، ويجعله قادراً على القيام بمهمته فى تنفيذ رغبات الأمة على الوجه الأكمل وكاد يكتب للنظام

الدستورى فى عهد إسماعيل النجاح الباهر ، ولكن تدخلت إنجلترا وفرنسا للقضاء على النهضة الدستورية فى مصر وعملتا على عزل الخديو إسماعيل ، لخضوعه للضغط الشعبى فى أواخر عهده وتساهله مع زعماء الحركة الوطنية التى تضر فى نظرهما بمصالح الدائنين وتعرقل سيطرة الاستعمار الأجنبى على مصر .

تولى توفيق الحكم فى البلاد بمساعدة الإنجليز ، فعمل بإيعاز منهم على القضاء على النهضة الدستورية فى مصر ، وكان أول أعماله الاستبدادية أن عطل مجلس النواب ليحكم البلاد حكماً مطلقاً .

وبدأ من جديد كفاح الشعب مطالباً مرة ثانية بالنظام الدستورى وعندما قامت الثورة العرابية كان تحقيق النظام الدستوري من أكبر أهدافها ، ولذلك كان من المطالب الرئيسية فى مظاهرة عابدين . وبخضوع الخديو توفيق لطلبات الشعب والجيش بدأت وزارة شريف فى أكتوبر سنة ١٨٨١ تمهد لإقرار النظام الدستورى وإنشاء المجلس النيابى وذلك بإجراء الانتخابات ، وكان انتخاب النواب يتم عن طريق العمد والمشايخ وبواسطتهم فى الريف ، ويتم عن طريق الأعيان والتجار وكبار رجال الفكر والدين فى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى .

ومن المؤكد أن هذه الطريقة فى الانتخابات لا تؤدى

إلى تمثيل طبقات الشعب تمثيلا صحيحاً، ولكن نظام الانتخاب وضع على أساس أن العمد والمشايخ ومن شابههم أشد إدراكاً وأكثر وعياً من عامة الشعب ، كما أنهم أكثر معرفة وأصدق حكماً على المرشحين لمجلس النواب ، وإذا كان لهذه الطريقة مزية فهى أن الانتخابات تتم فى وقت قصير وبدون جهود أو مصاعب .

ولكن عيوباً كثيرة وجهت إلى هذا النظام أهمها سهولة التأثير والضغط على العمد والمشايخ من جانب الحكومة أو الخديو بوساطة المديرين ورجال الإدارة ،وأن العمد والمشايخ قد ينتخبون النواب على أساس مصالحهم الخاصة دون النظر إلى مصلحة الشعب ومنفعة البلاد العامة ، وهذه العيوب تهدد الحياة النيابية تهديداً خطيراً ، ولكن هذه العيوب لم يكن لها الأثر الكبير فى الانتخابات ، لأنها أجريت فى عهد كانت فيه جميع طبقات الأمة متحدة ومتماسكة ومتمسكة بأهدافها الوطنية ، وكان جميع الناخبين يعملون لمصلحة الوطن قبل كل شىء ويفضلون المصلحة العامة على مصالحهم الشخصية ، كما أن الحكومة عملت من جانبها على أن تكون الانتخابات حرة بدون أى تدخل من جانبها أو من جانب الخديو وأتباعه . وحرصت على ألا يكون هناك ضغط أو تأثير على الناخبين ، لذلك

أصدرت أوامرها المشددة إلى المديريات والمحافظات وإلى رجال الإدارة بالوقوف على الحياد وبألا يتدخلوا فى الانتخابات وبمنع أى محاولة تؤثر على حرية الناخبين ، ونتيجة لهذه الجهود تكون المجلس النيابى من أعضاء يمثلون الشعب تمثيلا صحيحاً ويعبرون عن رغباته ومطالبه بصدق وأمانة ، ومما كان يبعث على الأمل فى نجاح مجلس النواب الجديد أن أعضاءه كانوا يقدرون الواجبات الملقاة على عاتقهم ، ويحسون إحساساً كاملا بالتبعات الوطنية والسياسية الملقاة عليهم ، وكان ذلك يظهر واضحاً جلياً من تصريحاتهم وخطبهم السياسية .

وقد بلغ عدد أعضاء المجلس نحو مائة عضو ، وقد ظهر فى ذلك الوقت مشروع يرمى إلى تطبيق النظام الدستورى فى السودان أيضاً ويرى تمثيله فى مجلس النواب بعدد من الأعضاء يتناسب مع مقدار الشعب السودانى ومن هذا المشروع ندرك اهتمام رجال الحركة الوطنية بالسودان وعنايتهم بإصلاح شئونه ، وقد كان هذا المشروع كفيلا بتقوية الروابط بين الشعبين المصرى والسودانى وخطوة كبرى فى تحقيق الوحدة بينهما ، ولكنه من المؤسف أن الفرصة لم تسنح بتنفيذ هذا المشروع بعد أن لقى تأييداً كبيراً فى صفوف المواطنين .

ولم يخل مجلس النواب الجديد من بعض النواب الرجعيين

ممن يعارضون الثورة العرابية والحركة الوطنية ، ولكن عدد هؤلاء النواب كان ضئيلا جداً فلم يستطيعوا أو يحاولوا الوقوف فى تيار الحركة الوطنية الشعبية ، وقد كان للنواب الوطنيين الأغلبية المطلقة فساعد ذلك على سرعة تنفيذ المشروعات الإنتاجية .

وقد افتتح مجلس النواب فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١ فى يوم مشهود كان بمثابة عيد وطنى للأمة المصرية تحققت فيه أهم أهدافها ، وهو حصول الشعب على حقه الطبيعى فى أن يحكم نفسه بنفسه عن طريق التمثيل النيابى .

وقد كان للمجلس النيابى الجديد سلطات واسعة خولها له الدستور تكفل له التصرف فى شئون البلاد ، وكان أهم هذه السلطات أن الوزارة مسئولة أمامه عن تصرفاتها وأعمالها ، وقدرته على إسقاطها فى حالة سحب ثقته منها ، وقد كان للمجلس الحق فى سن القوانين ، ثم إن أى قانون لا يتخذ صفته التنفيذية إلا بتصديق منه .

وكان للمجلس سلطة الإشراف على رجال الحكومة والإدارة ومراقبة أعمالهم ومناقشتها ، ومن سلطات المجلس أيضاً أن الحكومة لا تستطيع فرض أى ضريبة إلا بموافقته وتصديقه ، وكان هذا نصراً كبيراً لمصلحة الشعب وخطوة موفقة فى رفع الظلم عنه لأن الحكومات السابقة كانت تعمد فى الأزمات المالية والاقتصادية

إلى فرض ضرائب باهظة وغير عادلة على التجار والفلاحين والأهالى مما كان سبباً فى ازدياد الحالة الاجتماعية والاقتصادية سوءا .

ونستطيع أن نقول : إن كل هذه السلطات المخولة للمجلس كانت تعنى انتقال النفوذ والحكم من يد الخديو إلى أيدى النواب ممثلى الشعب ، كما أنه من شأن هذه السلطات الواسعة أن تقضى على التدخل الأجنبى وتقاومه مقاومة فعالة ، وهذا هو السبب الرئيسى الذى جعل إنجلترا تقاوم إنشاء هذا المجلس وإقرار النظام الدستورى فى مصر بشدة بكل وسائلها الاستعمارية ، وقد أرسلت مذكرة إلى الوزارة المصرية تحتج فيها على إنشاء مجلس النواب وتعلن استياءها من اجتماعه .

كفاح الشعب ضد التدخل الأجنبى :

ومما زاد من قيمة مجلس النواب الجديد ومركزه أنه بدأ يباشر سلطته مباشرة فعلية ،ولم يكن مجلساً صورياً أو شبه صورى كما حدث فى عهد الخديو إسماعيل ، فإن الخديو توفيق لم يكن يستطيع أن يؤثر أو يسيطر على النواب وهو يعرف أنهم مؤمنون كل الإيمان بأهداف الشعب ومطالبه الوطنية. ومما يدل على مدى تشبث النواب بسلطتهم وتمسكهم بتصريف شئون البلاد وقوع

الأزمة الدستورية فى يناير سنة ١٨٨٢ حين أصر النواب على أن يكون لهم حق مناقشة الميزانية والإشراف عليها ، وذلك حتى يقضوا على السيطرة الاستعمارية على اقتصاد البلاد ، ومن المؤكد أنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بعواطفهم الوطنية دون اهتمام بالاعتبارات السياسية التى قد تنشأ عن ذلك ، لأن إنجلترا وفرنسا لن يرضيهما قطعاً أن يفقدا سلطة الإشراف على مالية مصر ، والأجانب لن يطمئنوا على ديونهم عندما تكون الميزانية المصرية فى يد مجلس النواب وتحت رقابته .

وقد كان من رأى النواب أن هذه الديون لا تبرر إطلاقاً حرمانهم الإشراف على الميزانية وخاصة أن الميزانية المصرية هى من أخص الشئون الداخلية لمصر . وقد اعترض شريف على مطالب النواب وحاول جهده أن يقنعهم بأن يتخلوا عن مناقشة الميزانية وذلك لمنع الاصطدام بين الأمة المصرية وبين الاستعمار الأجنبي ، وخاصة أن البلاد فى حالة سيئة من الضعف وتحتاج إلى إصلاحات كثيرة ووقت طويل حتى تزداد قوة وتصبح قادرة تماماً على مواجهة القوى الاستعمارية وأساليبها المختلفة ومنها الحرب المسلحة . وكان من رأيه أن يؤجل النواب مناقشتهم للميزانية وأن يقصروا اهتمامهم ونشاطهم على الإصلاحات الداخلية الأخرى ولكن التيار الوطنى فى مجلس النواب كان

أشد من أن يحفل باعتراضات شريف ، فرفض النواب أن يتسامحوا أو يتساهلوا فى حقوقهم ، وخاصة أن الشعب كان يتطلع إلى خطوات وطنية كبيرة من جانب المجلس النيابى وإلى إجراءات حازمة شديدة لمقاومة التدخل الأجنبى وسيطرته على مالية البلاد .

وبعد مناقشات عديدة قرر النواب بالإجماع أن له سلطة الرقابة التامة على الميزانية ما عدا ما يختص بأداء الديون الأجنبية ، وكان هذا القرار من أهم القرارات التى اتخذها المجلس وقد ترتبت عليه نتائج كثيرة منها استقالة وزارة شريف . وقد كان من أسباب استقالة شريف أن القوى الوطنية فى البلاد أرادت لرئاسة الوزارة رجلا ينفذ سياسة الشعب الوطنية فى الحال وبدون أن يسمح لأى اعتبارات أخرى أن تعرقل تنفيذ الأهداف أو تقف فى طريقها ، وكانت تريد بصفة خاصة موقفاً حازماً حيال الاستعمار الأجنبى وتغلغله الخطير فى مصر ، وقد أحس زعماء الثورة العرابية أن شريف باشا لايقاومه مقاومةجادة حاسمة ، والواقع أن شريف باشا كان يخضع بعض الشىء لنفوذ وضغط الإنجليز لإنه يخشى أن يحتلوا مصر بالقوة المسلحة إذا حاول أن يقضى على الاستعمار الاقتصادى والسياسى دفعة واحدة ، وفى هذه الحالة تستبدل البلاد احتلالا شاملا باحتلال جزئى ، خصوصاً أنه لم يكن يملك من الإمكانيات ما يقاوم به التدخل الاستعمارى المسلح .

ولما كانت القوى الوطنية تأنف من ملاينة الاستعمار والتساهل معه فقد عملت على أن يحل مكان شريف فى رئاسة الوزارة محمود سامى البارودى ، لما عرف عنه من التحمس والوطنية ، كما أن الشعب رأى أنه جدير بأن يحقق الأهداف الوطنية فى عزم ودون أى تأخير أو تردد ، وقد عين عرابى وزيراً للحربية فى وزارة البارودى ، وبهذا أصبح رجال الثورة العرابية يسيطرون على الحكم ويتصرفون تبعاً لمبادئ الثورة ودون أى معارضة فى داخل الوزارة حتى أننا نستطيع أن نسمى هذه الوزارة الجديدة بوزارة الثورة العرابية. وفى وقت قصير أتمت هذه الوزارة بمساعدة مجلس النواب وتحت إشرافه مشروعات إصلاحية كبيرة ، منها استصدار قوانين عسكرية جديدة لإصلاح أحوال الجيش وللنهوض بمستواه الأدبى والعسكرى ، كما أن الحكومة عملت على إنصاف الموظفين المصريين فزادت مرتباتهم ؛ لتساعدهم على الحصول على مستوى المعيشة اللائق ، بعد أن كانوا فى حالة شديدة من البؤس والفاقة ؛ نتيجة لضآلة رواتبهم ؛ بل إن الحكومات فى العهود السابقة كانت كثيراً ما تتوقف عن دفعها نتيجة للأزمات الاقتصادية . وقد ظهر فى ذلك الوقت مشروع يرمى إلى إنشاء نظام خاص لترقية الموظفين وتنقلاتهم ، وذلك حتى لا يكونوا عرضة للاضطهاد عن طريق حرمانهم الترقية أو نقلهم إلى مناطق نائية.

النهضة الريفية :

وقد وجهت حكومة الثورة كثيراً من نشاطها واهتمامها إلى « تعمير » البلاد وزيادة مواردها ومن أجل ذلك بدأت فى تنفيذ مشروعات كبيرة للرى والإصلاح الزراعى على نطاق واسع ، وكانت تحرص على الاستعانة بالمصريين فقط فى تنفيذ هذه المشروعات الضخمة حرصاً منها على إبعاد النفوذ الأجنبى ؛ لأن سيطرة الأجانب السابقة فى عهد إسماعيل على كثير من المشروعات أدت إلى فشلها نتيجة لتلاعبهم فى أموالها بالاختلاس وغيره ولسوء إدارتهم وقلة كفاءة معظمهم ؛ مما عاد على البلاد بنكبات كبيرة أوضحها الديون الأجنبية فى عهد إسماعيل .

كما أن الاستعانة بالمصريين يعطيهم كثيراً من المران والخبرة العملية التى تحتاج إليها البلاد فى النواحى الإصلاحية .

ومما يدل على انتشار الوعى الإصلاحى فى مجلس النواب والاتجاه القوى فيه إلى « التعمير » وإقامة المشروعات الكبرى — الاقتراح الذى قدم إلى المجلس بإنشاء خزان أسوان ، وقد ناقش المجلس هذا المشروع ووافق عليه بأغلبية مطلقة .

وقد كانت لحكومة الثورة العرابية آثار جليلة فى رفع المستوى الاجتماعى للشعب المصرى وخاصة الفلاحين ؛ فقد

كان الفلاحون فى مصر مستعبدين لعدد قليل من الإقطاعيين وأتباع الخديو من الترك والشراكسة ، وكانت الحكومات فى العهود السابقة تسخر عدداً كبيراً منهم فى خدمة أراضى الخديو وأقاربه بالإكراه ، وتستعمل لذلك الضرب بالسياط كوسيلة لإرهابهم وإكراههم على العمل . وكان آلاف منهم ممن يكدحون فى أراضى الخديو الشاسعة لا يتناولون أجراً على عملهم الشاق المرير وإنما كانوا يعملون لقاء بضع وجبات من الطعام التافه لا يدفع عنهم غائلة الجوع وإن كان يدفع عنهم غائلة الموت ، ليضمن استمرارهم فى حياة السخرة وفى قيود الذل والاستعباد ، ولا ينسى أحد مأساة قناة السويس وهلاك الآلاف من الفلاحين المسخرين لحفرها ، وقد كانت هذه المأساة سبباً فى التأخر الزراعى ؛ لأن ترحيل مئات الآلاف من شباب الفلاحين من حقولهم ومناطق عملهم ليعملوا فى حفر القناة أدى إلى نقص الأيدى العاملة فى الميدان الزراعى بشكل خطير ، كما كان من الأسباب المهمة فى سوء حالة الفلاحين — الضرائب القاسية التى فرضها إسماعيل دون وجه حق .

وكان أهم عمل لحكومة الثورة العرابية القضاء على السخرة قضاء تاماً ، وقد راقبت تنفيذ ذلك مراقبة شديدة حتى فى أملاك الخديو ومزارعه ، وأتاحت للناس الحرية ، ونظرت فى شكواهم

ومظالمهم ، وعملت على أن تكون لهم حقوق ثابتة عند أصحاب الأرض من الإقطاعيين ، ومما فرضته الحكومة للقضاء على المعاملة الوحشية التى كان يقاسيها الفلاحون — تحريم الضرب بالكرباج ومنعه منعاً باتاً مهما كان السبب حتى لو كان ذلك من أجل تحصيل الضرائب . وقد بحثت الحكومة فى تنظيم الضرائب المفروضة على الفلاحين وألغت الضرائب المجحفة التى كان قد فرضها إسماعيل .

وكان للمشروعات الزراعية (كمشروعات تحسين الرى وغيرها التى عملت الحكومة على تنفيذها) أثر كبير فى رفع المستوى الزراعى ؛ ونتيجة لذلك تحسنت حال الفلاحين وزاد إنتاجهم . ومن كل هذه الإصلاحات يظهر واضحاً أن حكومة الثورة العرابية كانت تسير بتقدم ونجاح .

— ٣ —

التدخل الأجنبى

تاريخ التدخل الأجنبى :

وفى هذا الوقت الذى كانت تقوم فيه الثورة العرابية بالإصلاحات — بدأ التدخل الاستعمارى الإنجليزى الفرنسى يتخذ شكلا خطيراً ليقاوم النهضة التقدمية فى البلاد ؛ لأن ازدهارها يهدد المصالح الاستعمارية فى الشرق تهديداً مباشراً . وينبغى فى هذا المجال أن نتكلم عن تاريخ التدخل الإنجليزى الفرنسى من قبيل الثورة العرابية حتى انتهائه بالحرب المسلحة . كانت مصر فى ذلك العهد هدفاً يتنافس عليه الاستعمار الإنجليزى والفرنسى وكانت كل من الدولتين إنجلترا وفرنسا تحاول أن تعزز مركزها وتزيد قوتها بالسيطرة على مصر واحتلالها نظراً لموقعها (الاستراتيجى) المهم .

وقد بدأ اتجاه الغرب إلى استعمار الدول الشرقية يقوى نتيجة للتطورات الصناعية التى حدثت فى أوربا ، فقد كانت إنجلترا وفرنسا من أكبر البلاد التى زاد « الإنتاج الصناعى »

فيها زيادة ضخمة وهائلة ، حتى أنه كان يفيض كثيراً عن الحاجة المحلية ،ومن هنا بدأ التفكير الاستعمارى يتجه لاحتلال دول الشرق ، وذلك لفتح أسواق جديدة تستوعب « الإنتاج الصناعى » الزائد على حاجة البلاد الغربية ، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد ، فقد كانت المواد الأولية والخامات اللازمة للصناعة الأوربية والموجودة بكثرة فى بلاد الشرق هدفاً آخر تسعى إليه كل من إنجلترا وفرنسا ، وعلى سبيل المثال عمل الإنجليز منذ احتلالهم لمصر على القضاء على الصناعات المصرية المحلية كصناعة الغزل والنسيج وما شابههما تمهيداً لغزو الأسواق المصرية بمنتوجاتهم ، ثم تبدأ بضائعهم كالأقمشة الصوفية والقطنية والآلات الحديدية وغيرها تحتكر الأسواق المصرية وتسيطر عليها بعد أن أمنت منافسة الصناعات المحلية . وليس ذلك فحسب بل أنهم يضعون أيديهم على أهم خامات الصناعة فى مصر وهو القطن ليمدوا به مصانعهم الكبيرة الموجودة فى لانكشير ويوركشير وهما المقاطعتان الإنجليزيتان المشهورتان بغزل القطن ونسجه ، ومما ساعد الدول الغربية على تنفيذ سياستها الاستعمارية أن الشرق كان فى حالة يرثى لها من الضعف والانحلال ، وأن الدول العربية كانت تجتاحها الفتن والدسائس عقب تقلص نفوذ الدولة العثمانية عنها ، وساعد على التأخر

الاقتصادى والسياسى فيها الخلافات الداخلية التى كانت تمزق أرجاءها فتعطل المشروعات الإصلاحية والحركات الوطنية التى بدأت تظهر فيها .

وقد ظهر فى ذلك العهد ، مبدأ بين الدول الغربية يمكن أن يسمى « بالتعاون الاستعمارى » وخلاصة هذا المبدأ أن يكون لكل من الدول الاستعمارية منطقة نفوذ فى الشرق دون أن ينازعها فى السيطرة عليها باقى الدول الاستعمارية ، ونتيجة لهذا احتلت فرنسا تونس والجزائر احتلالا عسكرياً دون أن تحرك إنجلترا ساكناً ، كما استولت إنجلترا على الهند بدون تدخل الدول الأوربية الأخرى أو معارضتها ، وكان من نتائج مبدأ التعاون الاستعمارى أن فرنسا توقفت فيما بعد عن منافسة إنجلترا فى السيطرة على مصر .

وقد بدأ اهتمام إنجلترا باستعمار مصر بقوى ويشتد عقب افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ ، لأن القناة أصبحت الطريق الأساسى الموصل إلى المستعمرات البريطانية فى الهند . وقد وجدت كل من إنجلترا وفرنسا فى الديون الكبيرة التى تورط فيها الخديو إسماعيل فرصة ذهبية للتدخل فى شئون مصر الداخلية والسيطرة على اقتصادها ، ومن أجل ذلك عمل رجال الدولتين على أن تكون شروط الدين وشروط سداده شديدة وقاسية ، وأن

تكون أرباحه باهظة ليضمنوا بقاء مصر فى قبضتهم أكبر وقت ممكن ، واستغلت إنجلترا إحدى أزمات الخديو المالية فاشترت نصيب مصر فى أسهم قناة السويس بما يقل عن أربعة ملايين من الجنيهات فأصبحت بذلك أولى الدول المسيطرة على القناة والمتحكمة فى إدارتها . وقد عملت إنجلترا على إبعاد فرنسا عن شئون مصر ، وحرصت إنجلترا فى الوقت نفسه على أن يكون تدخلها ظاهرياً فقط ، وبذلك أخفت نياتها الاستعمارية المبيتة لاحتلال مصر تدريجياً ، فبدأت تستغل الديون الأجنبية لتشرف على اقتصاد مصر وتتدخل فى شئونها المالية ، ونتيجة لذلك عين وزير إنجليزى للمالية فى عهد إسماعيل وبذلك تمت الخطوة الأولى للتغلغل الاستعمارى ، وكانت خطوة الإنجليز الثانية هى تعيين أكبر عدد ممكن من الموظفين الأجانب فى مصر ليبسطوا نفوذهم على مرافقها المختلفة ، وبذلك يسيرون قدماً فى تحقيق السيطرة الشاملة التى يسعون إليها . وقد نجحوا أيضاً فى هذه الخطوة بدليل وجود ١٣٢٥ موظف أجنبى فى مصر وذلك حسب إحصائية سنة ١٨٨٢ على الرغم أن مجموع عدد موظفى الحكومة المصرية كان لا يزيد على ١٢ ألفاً ، وكان الموظفون الأجانب (كما سبق أن ذكرنا) يتولون المناصب الكبيرة .

ومن محاولاتهم أيضاً لتحقيق الاستعمار الشامل تشجيع

هجرة الأوربيين إلى مصر وفيهم كثير من الإنجليز والفرنسيين حتى يكونوا عوناً لهم فى احتلال البلاد ، وقد ظهر استعانة الإنجليز بالأجانب على ذلك النحو فى تدبير مذبحة الإسكندرية ، كما أنهم ضغطوا على الحكومات المصرية فى العهود التى سبقت الثورة العرابية ؛ كى يمنحوا الأجانب امتيازات عديدة منها إعفاؤهم من الضرائب ، ومنها إنشاء المحاكم المختلطة ، وقد زاد عدد الأجانب نتيجة لذلك زيادة هائلة حتى وصلوا إلى ما يربو على مائة ألف ، ولا شك أن استغلال مائة ألف من الأجانب لهذه الامتيازات يؤثر تأثيراً ضاراً فى الثروة الشعبية المصرية ، ويسىء إساءة بالغة إلى ميزانية الحكومة . ومن المؤكد أن هذه الخطوات رسمها الإنجليز بدقة ووضعوها بعناية لتحقيق مؤامرتهم الكبرى للسيطرة الشاملة على مصر .

وقد استطاعت القوى الوطنية أن تحبط هذه المؤامرة الاستعمارية مرتين : الأولى فى سنة ١٨٧٩ فى عهد إسماعيل حين تكتلت القوى الوطنية لإخراج الوزيرين الإنجليزى والفرنسى من الحكومة المصرية ، وأمكنها أن تخرج فى نفس الوقت عدداً كبيراً من الموظفين الأجانب ، وكانت المرة الثانية فى سنة ١٨٨١ عندما قامت الثورة العرابية ، فكانت النهضة الوطنية فى ذلك العهد أكبر عامل ساعد على فشل خطة الاستعمار وقد رأينا

من قبل كيف أن قيام المجلس النيابى بإقرار النظام الدستورى فى مصر إقراراً صحيحاً قضى على التدخل الاستعمارى .

وجدت بريطانيا أن الحركة الوطنية القومية فى مصر ستقضى على أحلامها فى احتلال البلاد قضاء تاماً ، فرأت أنه لابد أن تخطو خطوات حاسمة وسريعة للقضاء على الثورة العرابية وعلى أثرها فى الشعب ؛ لأن الوقت كان عاملا مهما فى زيادة الحركة الوطنية قوة ، وفى زيادة مركز مصر متانة مما يجعل إنجلترا عاجزة فيما بعد عن السيطرة على مصر ، فسعت إلى الخديو توفيق ليوافقها على مقاومتهـــا ، وكان من السهل جداً أن تكسب الخديو توفيق إلى صفها ؛ لأنه كان يحقد على زعماء الثورة العرابية ولأن القضاء على النهضة الوطنية يعيد له مركزه السابق ، ونفوذه وسيطرته على الشعب المصرى ، وضمنت إنجلترا باتفاقها مع توفيق سنداً قوياً تعتمد عليه فى خطواتها المقبلة ، وكان مما زاد الخلاف بين الخديو توفيق وزعماء الثورة العرابية ، أن الضباط الشراكسة برئاسة عثمان رفقى وزير الحربية فى أوائل عهد توفيق والذى أطاحت به الثورة — دبروا مؤامرة كبرى لقلب نظام الحكم والقضاء على الثورة العرابية ، وكانوا يزمعون اغتيال أحمد عرابى وزملائه من كبار الوطنيين ، وكان الهدف الأساسى من هذه

المؤامرة هو استعادة مكانتهم القديمة ، ويبدو أن للاستعمار الإنجليزى يداً فى تدبير هذه المؤامرة لما فى تحقيقها ونجاحها من تحقيق أهداف المستعمرين ومصالحهم ، وعندما كشف زعماء الثورة هذه المؤامرة أحالوا مدبريها إلى محاكم خاصة قضت عليهم بالنفى خارج البلاد مع تجريدهم من امتيازاتهم وأملاكهم وكان لابد أن يعارض الخديو توفيق هذا الحكم معارضة شديدة ؛ لأن الشراكسة هم أنصاره الوحيدون فى مصر ؛ وهم القوة التى كان يعتمد عليها فيما مضى فى بسط سلطانه وسيطرته على الشعب المصرى وإخضاعه ، ولأن نفى عدد كبير من الشراكسة يمهد للقضاء النهائى على نفوذه ، هذا الخلاف كان من الأسباب التى ساعدت على انضمام الخديو إلى صف الإنجليز . بدأت إنجلترا تعد العدة لاحتلال مصر بالقوه المسلحة فأرسلت أسطولا من السفن الحربية ويصحبه بعض البوارج الفرنسية إلى السواحل المصرية ، وما لبثت السفن الحربية الإنجليزية أن وفدت متتابعة إلى مياه الإسكندرية وذلك خلال شهر مايو سنة ١٨٨٢ ، وكانت الأسباب الظاهرية التى تذرعت إنجلترا بها لإرسال سفنها الحربية هى حماية الأجانب فى مصر من خطر الثورة العرابية وما تسببه من اضطرابات تهدد أرواحهم وممتلكاتهم ؛

وتأييد سلطة الخديو وتعزيزها ومساعدته ليباشر حقوقه فى حكم البلاد ، ومن الظاهر جداً أن هذه الأسباب ما هى إلا حجة مصطنعة ، فإن الحكومة المصرية وزعماء الثورة العرابية تعهدوا أكثر من مرة بالمحافظة على أرواح الأجانب وممتلكاتهم ، وكانت إنجلترا على يقين من صدق هذه التعهدات وأن مصر لن ترجع مطلقاً فى وعودها .

تطور التدخل الأجنبى :

وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ اتخذ التدخل الاستعمارى شكلا خطيراً فقد أرسلت الحكومة الإنجليزية والفرنسية إنذاراً إلى وزارة محمود سامى البارودى تطلبان فيه نفى عرابى إلى خارج القطر المصرى ، وإبعاد عبد العال حلمى وعلى فهمى (وهما من أبرز زعماء الثورة العرابية) عن المحيط السياسى وذلك بتحديد إقامتهما فى الريف ، وكان قبول هذه المطالب يعنى القضاء على نشاط الثورة العرابية وترك الميدان السياسى خالياً أمام الخديو توفيق بعد إبعاد الزعماء المصريين عنه فيستطيع بسهولة أن يستعيد سيطرته على الجيش وسلطاته السابقة .

وقد ثار الشعب ثورة شديدة على هذا الإنذار ، واهتاجت

النفوس، لأنه يعتبر تحدياً من الإنجليز للقوى الوطنية فى مصر، ولكن على الرغم من الثورة الشعبية على هذا الإنذار، وعلى الرغم من أن الوزارة المصرية برئاسة محمود سامى البارودى رفضته رفضاً قاطعاً — وجدنا الخديو توفيق يقبل هذا الإنذار ويوافق على تنفيذه، ومن هنا بدأ الخلاف يتطور ويزداد خطورة بين الشعب بزعامة عرابى وبين الخديو توفيق وبخاصة أن الخديو قد انضم صراحة إلى الاستعمار الأجنبى بقبوله ذلك الإنذار، ويبدو أن تقديم الإنذار الإنجليزى وقبول الخديو له كان خطة مدبرة من قبل ومتفقاً عليها. وقد تسبب هذا الخلاف فى حالة قلقة انتابت الشعب بعد أن استقال البارودى واستقال معه أعضاء الوزارة احتجاجاً على قبول الخديو توفيق لمطالب الاستعمار، وتعددت المظاهرات والاجتماعات الوطنية فى هذه الفترة، وظهرت فكرة قوية ترمى إلى خلع الخديو توفيق وإحلال آخر مكانه يساير الحركة الوطنيـــة، وقد تبين تحبيذ الشعب لهذه الفكرة ومناصرته لها عندما خطب عبد الله النديم فيما يزيد على عشرة آلاف من أهالى الاسكندرية، وذلك عقب قبول الخديو للإنذار الإنجليزى الفرنسى منددا بموقفه ومطالباً بعزله، وقد بدا فى خطابه اتجاه واضح إلى النزعة الجمهورية فقابل الشعب خطابه هذا بحماس عظيم مما يعد دليلا حياً على تذمر الشعب وسخطه

على الخديو ، وقد ازدادت الثورة الشعبية حدة نتيجة لاستقلال الخديو بالحكم بعد استقالة البارودى دون أن يعمل على تأليف وزارة جديدة ، كما أنه رفض أن يدعو مجلس النواب للاجتماع وبحث الحالة الناشئة عن تقديم الإنذار الإنجليزى الفرنسى إلى الحكومة المصرية ، ومما زاد فى اضطراب الحالة أن الأجانب كانوا يرحلون من جميع أنحاء البلاد إلى الاسكندرية ليكونوا فى حماية الأسطول الإنجليزى الفرنسى الرابض فى مياهها . وعندما كانت الثورة العرابية تنفجر وبلغ تذمر الجيش درجة كبيرة حتى أن بعض القواد أرسلوا يقولون للخديو أنهم لا يضمنون تصرفات الجيش طالما أن عرابى معزول عن وزارة الحربية — وجد الخديو أن من الأسلم لعرشه أن يعيد عرابى من جديد وزيراً للحربية وذلك دون أن تؤلف وزارة جديدة مكان الوزارة المستقيلة .

وفى هذا الجو المليء بالقلق والتوتر بدأت إنجلترا فى تنفيذ مؤامرة خسيسة فى الإسكندرية مما أدى إلى قيام مذبحة الإسكندرية المعروفة وذلك فى ١٢ يونية سنة ١٨٨٢ ، فقد مهدت إنجلترا لوقوع هذه المذبحة بتوزيع كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر على رعاع الأجانب الموجودين بالإسكندرية ، وإن الدليل الدامغ

على أن الإنجليز هم المدبرون لهذه المذبحة — أن القنصلية الإنجليزية بالإسكندرية كانت تحتوى على كميات غير عادية من الأسلحة والذخائر ، وأنها هى التى تولت توزيعها على مختلف الأجانب بالإسكندرية ، وقد ورد ذكر هذه الأسلحة فى تقارير « البوليس » المصرى عن مذبحة الاسكندرية ، وعندما أصبح الجو مهيأ لتنفيذ المؤامرة استأجرت القنصلية الإنجليزية بعض المالطيين للاعتداء على الأهالى وإثارتهم ؛ لبدء الصدام بينهم وبين الأجانب ، كما أن الخديو إحكاماً للمؤامرة أوعز إلى محافظ الإسكندرية وهو أحد أتباعه بألا يتدخل لوقف التصادم ، وذلك حتى ينسب اضطراب الأمن للزعماء العرابيين ، ونتيجة لتهاون محافظ الإسكندرية فى حفظ الأمن أدى التصادم بين الأهالى والأجانب إلى قتل عدد كبير من الفريقين .

وتبين أن استمرار حكم الخديو للبلاد بدون أى وزارة مسئولة يخلق فى البلاد حالة غير طبيعية ، ولا يساعد على الاستقرار ، ورأى الخديو توفيق أن يعهد بتأليف وزارة جديدة إلى أحد رجال السياسة المناهضين للثورة العرابية حتى يساعده فى الحد من نفوذ عرابى داخل الوزارة ، فعرض تأليف الوزارة على كثير من المشهورين بعدائهم لعرابى وبغضهم إياه ، ولكن

هؤلاء خشوا نتيجة الخلاف والصراع مع زعماء الثورة العرابية ، ووجدوا أن مقاومتهم للحركة الوطنية الشعبية ستجر عليهم سخط الشعب وغضبه وخاصة فى هذه الظروف الحرجة ، وأخيراً عهد الخديو إلى رجل محايد هو إسماعيل باشا راغب بتأليف وزارة جديدة مع الاحتفاظ لعرابى بمنصب وزير الحربية ، ولم تستطع هذه الوزارة الجديدة برئاسة إسماعيل راغب أن تخفف من حدة التوتر والقلق بين أفراد الشعب ، وقد زاد من هذا التوتر الشائعات التى راجت عن طلب الخديو توفيق إلى الإنجليز احتلال مصر بحجة إعادة الأمن والاطمئنان إلى البلاد ، والواقع أن هذه الشائعات كان لها أساس كبير من الصحة ، فإن الخديو طلب فعلا تدخل الإنجليز العسكرى للقضاء على الثورة العرابية ، وصار من المتوقع أن يتدخل الإنجليز بجيوشهم المسلحة فى أى وقت ، ومما أيد هذا الظن أن الأجانب كانوا يرحلون بكثرة من مختلف أنحاء البلاد إلى الخارج أو إلى السفن الراسية فى مياه الإسكندرية ، وقد بلغ عدد الأجانب الذين تركوا مصر فى هذه الفترة ما يزيد على ستين ألفاً ، ولم يكن من المعقول أن يترك هذا العدد العدد الكبير من الأجانب مصالحهم وامتيازاتهم فى مصر ، إلا إذا كانوا متيقنين تماماً

من أن الإنجليز يدبرون اعتداء مسلحاً عليها ؛ كما أن بعض قنـــاصل الدول الأجنبية كتبوا رسمياً إلى رعاياهم فى مصر ينصحونهم بالرحيل عن مصر فوراً وبدون تأخير ، وكان أكبر الأخطاء التى ارتكبها زعماء الثورة العرابية أنهم ظنوا أن حضور الأسطول الإنجليزى ما هو إلا للتهديد فقط ، وأن الحكومة الإنجليزية لن تجرؤ على احتلال مصر بالقوة المسلحة ، ولم يكن هناك ما يؤيد هذا الظن على الإطلاق ، بل إن الدلائل كما وضحت من قبل كانت تشير إلى تصميمهم الأكيد على احتلال البلاد .

وكان هذا الظن الخاطئ سبباً فى تأخير استعدادات العرابيين للحرب ، وأدى إلى وجود نقطة ضعف خطيرة فى دفاع البلاد ، وقد بدأت انجلترا تتذرع ببعض الحجج الواهية التافهة لتدخلها المسلح ، فأرسلت إنذاراً إلى الحكومة المصرية تقول فيه : إنها لاحظت أن المصريين يعملون على تحصين الإسكندرية وترميم حصونها البحرية ، وإن ذلك يهدد سلامة الأسطول الإنجليزى .

والواقع أن هذا الإنذار مبنى على أسباب غاية فى التفاهة ؛ فإن مصر حرة تمام الحرية فى إجراء أى اصلاحات فى قلاعها

البحرية ، كما أن تقويتها لدفاع الإسكندرية واجب وطنى ويعد من صميم شئون البلاد الداخلية المتعلقة بأمنها وسلامتها . ومع هذا كله فإن الإصلاحات التى كانت تجرى فى قلاع الإسكندرية كانت إصلاحات عادية جداً ، لم تجاوز ترميم المبانى المتهدمة فى المعسكرات المصرية ولا يكمن فى ذلك أى خطورة على الأسطول الإنجليزى ، بل إن فى وجود الأسطول الإنجليزى يكمن الخطر الحقيقى الذى يهدد البلاد المصرية . وقد كان الرد المصرى على ذلك الإنذار الإنجليزى يشمل هذا المعنى ، ولكن قائد الأسطول البريطانى أصر على الإنذار بل طالب بتسليمه حصون الإسكندرية البحرية بأسلحتها ، وإلا دمر هذه الحصون بمدافع أسطوله ، وكان طبيعياً أن ترفض الحكومة المصرية هذا الإنذار لما فى قبوله من مساس بكرامة البلاد وتحقير لها ، كما أنه يؤدى إلى ثورة الرأى العام الشعبى ، والواقع أن الحكومة تبينت من هذا الإنذار أن الإنجليز مصممون على احتلال مصر سواء أقبلت هذا الإنذار أم رفضته ، فوجدت أن رفض الإنذار والمقاومة أفضل وأكرم من الاستسلام .

التدخل الإنجليزى المسلح :

وفى صباح ١١ من يوليه سنة ١٨٨٢ بدأ الأسطول الإنجليزى يطلق مدافعه على قلاع الإسكندرية ، وكان ضرب الأسطول شديداً ومركزاً ، ثم إن الأسطول لم يهاجم مدينة الإسكندرية مهاجمة شاملة بل كان يهاجم حصون الإسكندرية حصناً حصناً ، وبذلك تكون قوة الضرب والتركيز هائلة جداً بحيث لا يستطيع الحصن الواحد أن يقاومها ، فينهار دفاعه بعد أن تهدم مبانيه وتفسد مدافعه ، وقد بدأ الأسطول يضرب المدينة من الساعة السابعة صباحاً حتى السادسة مساء ، ولم يتوقف إلا فترات قليلة خلال هذه المدة ، وقد سقط كثير من القنابل على المدينة ذاتها فدمرت كثيراً من المساكن ، وأشعلت الحرائق الشديدة فى بعض أحياء المدينة وخاصة الأحياء الشعبية ، وكان القتال يتحول لصالح الإنجليز نظراً لضعف الحصون والمدافع المصرية ، وعلى الرغم من ذلك أثبت الجنود المصريون شجاعة هائلة وثباتاً جباراً عجيباً ، وكانوا يقاتلون بإصرار وعزم وقنابل الأسطول الثقيلة تتساقط عليهم ومن حولهم ، فتقتل كثيراً منهم وتدمر القلاع تدميراً شاملا ، ونستطيع دون مبالغة أن نقول إنه لو كان فى يد هؤلاء الجنود البواسل من الأسلحة الحديثة

ما يكافئ أسلحة الإنجليز لتغير وجه المعركة ، ولكتبت على الإنجليز هزيمة ساحقة .

ولا نستطيع فى هذه المعركة إلا أن نذكر موقف الشعب المصرى العظيم ، فقد تطوع كثير من الرجال والنساء لخدمة الجنود ومساعدتهم ؛ فالرجال ينقلون الذخائر من المخازن لتوزيعها على المراكز الدفاعية المختلفة ، وامتلأت المستشفيات بالنساء المتطوعات لخدمة الجرحى من الجنود وتمريضهم ، ومع أن كثيراً من المتطوعين رجالا ونساء قتلوا وأصيبوا فى أثناء عملهم الجليل فإن ذلك لم يمنع الشعب من أن يواصل تطوعه أو حتى يحد من إقباله عليه .

وقد أدى ضرب الإسكندرية إلى قتل ما يقرب من ألفين من المصريين ، منهم ما يقرب من مائتين من رجال المدفعية الذين كانوا يقاومون الأسطول ، والباقى من عامة الشعب قتلتهم القنابل المتساقطة على المدينة والحرائق التى نشبت بسبب ذلك ، وإننا لندرك إلى أى حد وصلت بطولة المصريين واستبسالهم ، وإلى أى مدى وصلت شجاعتهم حين نوازن بين قوة أساطيل الإنجليز الحربية وبين قوة دفاع الإسكندرية وتحصينها ، فقد كان الأسطول الإنجليزى الضارب مكوناً من أربع عشرة سفينة منها ثمانى مدرعات كبيرة ، وخمس سفن للمدفعية الثقيلة ، وسفينة

للطوربيد ، وكان بالأسطول ما يقرب من ثمانين مدفعاً كبيراً من المدافع الحديثة ذات المدى البعيد ؛ مما جعل فى قدرة الأسطول أن يدمر حصون الإسكندرية ، وهو فى الوقت نفسه بعيد عن مرمى المدافع المصرية ، على حين كانت قلاع الإسكندرية (وإن كانت تحتوى على عدد كبير من المدافع) معظم مدافعها قديم ، وفى حالة غير صالحة لخوض هذه المعركة ، وكانت نسبة كبيرة من هذه المدافع تبلغ حوالى ٨٥ ٪ يرجع تاريخها إلى عهد محمد على ، بل إن بعضها يرجع إلى عهد الحملة الفرنسية ؛ ومما يدل على مدى صلاحية هذه المدافع وقدمها أن قذائفها كانت تسقط فى البحر دون أن تصل إلى سفن الأسطول أو حتى تقترب منه ؛ أما المدافع الحديثة الموجودة فى الإسكندرية فقد كان ينقصها الآلات اللازمة لتقدير المسافات وإحكام المرمى مما كان سبباً فى أن يطيش معظم قذائفها ولا تصيب أهدافها ؛ وكانت القوة المقاتلة العاملة على مدافع الإسكندرية قليلة جداً إذا قسناها بالأسطول الإنجليزى ؛ فإن عدد الجنود المصريين فى هذه الموقعة كان لا يزيد على سبعمائة بينما جنود البحرية الإنجليزية يبلغون خمسة آلاف وسبعمائة .

وقد أدى ذلك الفارق الكبير فى القوة بين الأسطول الإنجليزى وبين دفاع الإسكندرية إلى سقوط المدينة فى أيدى

الإنجليز فى ١٣ من يوليه سنة ١٨٨٢ بعد أن انسحبت الجيوش المصرية إلى داخل البلاد لتكوين خط دفاعى داخلى عند كفر الدوار ، وبدأ عرابى فى تحصين كفر الدوار وإقامة بعض الاستحكامات فيها ، ولما كان انسحاب جنود الجيش المصرى من الإسكندرية غير منظم ، وكان كثيرون منهم قد آبوا إلى بلادهم ، فقد اقتضى إنشاء خط كفر الدوار من عرابى جهوداً كبيرة ؛ منها تجميع العساكر من بلادهم ، وتنظيمهم ، وتوزيعهم على المواقع التى اتخذها الجيش ما بين عزبة خورشيد وكفر الدوار وقد ساعد الوقت على زيادة تحصينات الخط الدفاعى وتزويده بمدافع الميدان ؛ وقد أسهم الشعب فى تحصين مواقع الجيش واشترك أكثر من خمسة آلاف من الأهالى فى بناء هذه المواقع وحفر الخنادق أمام الخطوط المصرية الدفاعية .

وفى أوائل أغسطس سنة ١٨٨٢ تم تحصين كفر الدوار وأصبح منيعاً يستطيع أن يقاوم الإنجليز ويقف تقدمهم ، وكان الفضل فى ذلك لرئيس أركان حرب الجيش المصرى محمود باشا فهمى ، وكانت الإمدادات الإنجليزية تتوالى تباعاً على الإسكندرية خلال شهرى يوليه وأغسطس ، وعسكر الإنجليز فى ضاحية الرمل بالإسكندرية وأقاموا بهـــا بعض الاستحكامات .

خيانة الخديو توفيق :

وفى هذه الأثناء ظهرت خيانة الخديو توفيق ظاهرة واضحة ، فقد كان من المقرر أن يرحل إلى العاصمة بعد سقوط الإسكندرية وانسحاب الجيش المصرى منها ، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك التجأ هو وعائلته إلى الإنجليز وأقام فى قصر رأس التين فى حراسة « البوليس الحربى » الإنجليزى ، وقد استقبل الإنجليز الخديو بالسرور والترحيب ، وإنه من المعتقد أن التجاء الخديو إلى الإنجليز كان خطة مدبرة من قبل ضرب الإسكندرية ؛ وذلك حتى يستعين الإنجليز به على احتلال البلاد بسهولة وتبرير ذلك الاحتلال . فقد أصدر الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى كثيراً من المنشورات وزعها على الأهالى وفيها أن الإجراءات العسكرية الإنجليزية إنما هى بتكليف من الخديو صاحب الحكم فى البلاد للمحافظة على الأمن والنظام ، وبلغت نذالة الخديو توفيق مبلغاً عظيماً حتى أنه أرسل إلى عرابى وقواد الجيش المصرى فى ١٧ من يوليه سنة ١٨٨٢ يأمرهم بمنع احتشادات الجيش المصرى وبتسريح الجنود الذين استدعاهم عرابى للقتال ، وبأن يقف الاستعدادات الحربية ويمنع إقامة التحصينات ، ويدعو عرابى لتسليم نفسه إليه بالإسكندرية مع

أنها تحت الاحتلال الإنجليزى ، وعلل الخديو توفيق إصداره لهذه الأوامر تعليـــلا غريباً ، فقد قال : إن الدولة الإنجليزية إنما هى دولة مسالمة ، وإن أسطولها لم يحضر للحرب والقتال ، وإنما حضر إلى المياه المصرية بصفة ودية ، وإن عرابى بتصرفاته العدائية نحو ذلك الأسطول أدى إلى ضرب الإسكندرية

ومن هذا ندرك خضوع الخديو التام المخزى للإنجليز حتى أنه يأمر عرابى بالاستسلام وتسريح الجيش ، وقد كان رد عرابى على ذلك الخديو الذى جعل نفسه ألعوبة فى يد المعتدين رداً قوياً وحاسما فقد أرسل له برقية من نصها ما يلى :

« إذا كنت حراً فيجب حضورك إلى عاصمة البلاد ، وإن كنت أسيراً لدى الإنجليز أو متحيزاً إليهم فلا يمكن التسليم بقبول ما يكتبه العدو عن طريقك وبواسطتك » .

وأرسل عرابى منشوراً إلى مختلف أنحاء البلاد مطالباً فيه المديرين وموظفى الدولة جميعاً بالامتناع عن تنفيذ أوامر الخديو لخيانته وانحيازه إلى الإنجليز أعداء البلاد ، وقد امتنع الموظفون فعلا بدافع من وطنيتهم الحقة عن تنفيذ أوامر الخديو .

وقد رأى عرابى أن منشورات الخديو التى تحرض على الاستسلام للقوات الإنجليزية قد تسبب وجود بعض الاضطراب فى صفوف الجبهة الوطنية ، فقرر بموافقة كبار موظفى الحكومة

وزعماء الشعب عقد مؤتمر وطنى ؛ لبحث حالة البلاد الحاضرة والتجاء الخديو إلى الأعداء ، وأوامره التى يصدرها بالكف عن القتال ، وقد بلغ عدد المشتركين فى هذا الاجتماع الوطنى نحو خمسمائة عضو ، منهم كبار الموظفين ورجال الدين والقضاة والتجار والأعيان ، وتداولوا الرأى فى الموقف وأقروا بأن الشعب غير ملزم بإطاعة قرارات الخديو فى مثل هذه الظروف ، كما أجمعوا على أن الاستعدادات الحربية التى يقيمها عرابى هى واجب وطنى لتأمين سلامة البلاد وأمنها طالما جنود الإنجليز تحتل الإسكندرية وأسطولهم الحربى يهدد سواحل البلاد . وقد كان رد الخديو توفيق على قرارات ذلك المؤتمر الوطنى يبين بوضوح أنه ما زال مصراً كل الإصرار على خيانته للبلاد، فقد أصدر فى ٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ منشوراً وجهه إلى المصريين أعلن فيه عزل عرابى عن وزارة الحربية وقال ما معناه : إن عرابى هو المتسبب والمدبر لمذبحة الإسكندرية ، وقد أعلن الخديو فى ذلك المنشور عصيان عرابى وعدم تنفيذه للأوامر العليا ، وهدد المصريين عامة وجنود الجيش خاصة بأن من يطيع عرابى ويساعده على القتال ضد الإنجليز يعد عاصياً ومستحقا لأشد أنواع العقاب ، كما طلب إلى الأهالى الامتناع عن أداء الضرائب إلى عرابى وأتباعه ليستعين بها على نفقات القتال وقال : إن

الضرائب التى تدفع للعرابيين غير محسوبة ويطالب دافعها بدفعها ثانية بعد زوال حكم العرابيين . وقد قدر الخديو توفيق وقواد الإنجليز أن هذا المنشور سوف يثير الشعب على عرابى ويتسبب فى انفضاض عدد كبير من رجال الجيش من حوله ، ولكن الجيش والشعب أخلفا ظن الخديو والأعداء ؛ فإن ذلك المنشور لم يزدهم إلا يقيناً بخيانة الخديو مما زاد فى غضبهم وسخطهم عليه ، وظهر ذلك حين اجتمع المؤتمر الوطنى مرة ثانية ، وأعلن كبار رجال الدين فى ذلك المؤتمر خروج الخديو على شرائع الدين بانحيازه إلى أعداء البلاد . وقد قرر المجلس بالإجماع ألا يقبل عزل عرابى من منصبه ، وقرر باسم الشعب بقاءه وزيراً للحربية ليواصل استعداداته لقتال الإنجليز ، وأما فيما يختص بموقف الخديو فقد أصدروا قرارهم بما يشبه عزله ، إذ رأى بعض رجال السياسة أن عزل الخديو فى هذه الظروف قد يؤدى إلى تدخل تركيا واعتراضها مما يسبب بعض الاضطراب ، وأجلوا عزله رسمياً إلى ما بعد انتهاء القتال واستقرار الحال .

ومن الدلائل التى تجزم بخيانة الخديو توفيق وخسته أنه أمر بالاستيلاء على كميات كبيرة من الطعام كانت مخصصة لتموين الجيش ومحفوظة بالإسكندرية ، وأعطاها قيادة القوات الإنجليزية لتوزيعها على الجنود الإنجليز ، ومما زاد عمله هذا نذالة وحطة

أن الجيش المصرى فى هذا الوقت كان فى أشد الحاجة إلى المؤنة والطعام ، وكان يعتمد اعتماداً كلياً على هذه المقادير التى استولى عليها الخديو .

الحرب :

وقد بدأ الاصطدام الحربى بين الجيشين المصرى والإنجليزى فى ٥ من أغسطس سنة ١٨٨٢ حين حاولت بعض القوات الإنجليزية أن تتقدم وتقيم بعض المدافع أمام خطوط الجيش المصرى الدفاعية ، التى تبتدىء من أبى قير وعزبة خورشيد وتنتهى عند كفر الدوار ، وتقدم الإنجليز بما يزيد على ألفى جندى من المشاة والفرسان تصدت لهم فرق من الجيش عند أبى قير ، بقيادة خورشيد باشا ، فهاجمتهم بعنف وشدة ، حتى تقهقروا فارين ، وقد فشلوا فى اتخاذ مواقع أمام خطوط الدفاع المصرية ، بعد أن دام القتال ما يقرب من أربع ساعات ولم تصب القوات المصرية فى هذه الموقعة بأى خسائر وتكبد الإنجليز بعض الخسائر .

وكانت الموقعة التالية فى ٧ من أغسطس بالقرب من حدود عزبة خورشيد فقد تقدم الإنجليز بقوات كبيرة فى هجوم واسع النطاق على الخطوط الدفاعية التى اتخذها الجيش المصرى حول

كفر الدوار ، وانتقلت بعض الفرق الإنجليزية إلى أرض المعركة بوساطة السكك الحديدية ، وكان الجيش الإنجليزى المهاجم تحت قيادة الجنرال « إليزون » ، وعند ما اقتربت القوات الإنجليزية من مقدمة الجيش المصرى عند عزبة خورشيد بدأ المصريون دفاعهم فى قوة وعنف ، فضربوا القاطرات التى تنقل الجنود الإنجليز بمدافع الميدان فعطلوها ، فتركها الإنجليز وهجمت مشاتهم على مقدمة الجيش المصرى ، وأظهر الضباط المصريون شجاعة نادرة وكفاءة ممتازة فى قيادة جنودهم ، أما الجنود فكانوا مثالا للثبات والجرأة ، وكان هجومهم على الإنجليز شديداً مروعاً حتى التحم الجيشان وتقاتلا بالسلاح الأبيض وجها لوجه ، وقد انتصر المصريون فى هذه الموقعة وانسحب العدو متستراً بالظلام ، وكانت القوات المصرية تتعقبه فى فراره وتقهقره مواصلة إطلاق نيرانها عليه ، وقد استغرقت هذه الموقعة نحو ست ساعات ، وكانت خسائر الجيش المصرى فى هذه الموقعة حوالى عشرين قتيلا منهم أحد الضباط والباقى من الجنود ، كما كان عدد الجرحى مثل ذلك تقريباً ، أما خسائر الإنجليز فقد كانت كبيرة وأكثر فداحة من خسائر المصريين ، فقد تركت القوات الإنجليزية فى أرض المعركة ١٨ جثة ، هذا عدا عشرات أخرى من القتلى والجرحى حملهم الإنجليز عند انسحابهم .

وعلى الرغم من أن الإنجليز تكبدوا خسائر كثيرة فى هذه المعركة واصلوا القتال حتى منتصف الشهر ، ونشب القتال مرات عديدة حول حدود كفر الدوار ، ولكن لم ينجح الإنجليز فى تحطيم الدفاع المصرى ، ويمكن أن تعتبر هذه المعارك جميعها فوزاً وانتصاراً للعرابيين .

وقد رأى الإنجليز بعد هزيمتهم المنكرة فى هذه المعارك أن من الصعب جداً احتلال مصر عن طريق كفر الدوار ؛ لمناعة التحصينات المصرية ، وشدة المقاومة فى هذا الخط الدفاعى ، فقرروا احتلال قناة السويس والهجوم عن طريقها ، فقد كان الدفاع عن منطقة القناة ضعيفاً نظراً لأن القوة العسكرية المصرية كانت مركزة فى خط كفر الدوار الدفاعى ، وعملت القيادة الإنجليزية لكى تخفى عزمها على الهجوم عن طريق قناة السويس أن تستمر المناوشات العسكرية حول كفر الدوار ؛ حتى توهم القيادة المصرية أن الإنجليز مصممون على أن يكون هجومهم الرئيسى من ناحية كفر الدوار .

وطنية الشعب :

أخذ عرابى يستعد للمعارك الكبرى الفاصلة ويتخذ أهبته لها ، ولم تكن ميزانية البلاد فى هذا الوقت تساعده على أن يقوى الجيش المصرى المحارب ، ويمونه بالمؤن والذخيرة ، فقد كانت الخزانة المصرية خالية تماماً بعد أن استطاع الخديو توفيق أن ينهب ما فيها من أموال ويهربها إلى الأسطول الإنجليزى بالإسكندرية ، فاضطر عرابى لأن يفرض ضريبة ضئيلة على الشعب عشرة قروش عن كل فدان ، وقد وصل وعى الشعب المصرى ووطنيته إلى حد بعيد فقد تقبل هذه الضريبة بصدر رحب وأحس أن ذلك واجب وطنى عليه من أجل الدفاع عن البلاد وحفظ كرامة الوطن . ونستطيع فى هذا المجال أن نتكلم عن وطنية الشعب التى ظهرت بوضوح وبشكل عميق ومؤثر ، فقد تبرع كثير من الفلاحين بنصف ما يملكونه من الغلال والمواشى وكانت نساؤهم تبذل الجهود العظيمة لتصنع مقادير كبيرة من الجبن والسمن وغير ذلك من المنتوجات القروية ؛ لتهديها إلى الجيش المحارب ، وقد بلغت الوطنية ببعض أفراد الشعب أن نزلوا عن جميع ما يملكونه لتغطية نفقات الحرب ، وقد تساوى فى هذه الوطنية المتدفقة الأغنياء والفقراء ، فقد تبرع أحد

الأغنياء بأقمشة تكفى لثلاثة آلاف جندى ، وتبرع بقطيع كبير من الماشية والأغنام لإطعام الجنود ، بل إن عدداً كبيراً من النساء فى المدن والقرى تبرعن بحليهن ومدخراتهن للجيش ، وإن أبلغ آية وأروع صورة من صور الوطنية فى ذلك الوقت أن بعض الأهالى المعدمين الذين لا يملكون شيئاً يتبرعون به أخذوا يجمعون الحطب ويبعثون به إلى معسكرت الجيش ليستعمل فى طهى الطعام . وقد تطوع الآلاف من الشعب للقتال بجانب الجيش ولكن الوقت لم يتسع لتدريبهم ، وتطوعت آلاف أخرى لخدمة الأغرض العسكرية ، فكانت تعمل فى بناء المواقع الحربية وتحصينها وحفر الخنادق أمامها . وقد كانت جماهير الشعب تقابل الفرق العسكرية الذاهبة إلى الميدان بالمظاهرات الحماسية فى كل مكان وبالهتافات والخطب الوطنية ، ومن هتافاتهم التى كانت شائعة فى ذلك العهد قولهم : « يا مولانا يا عزيز ، اهلك عسكر الانجليز » ، كما كانوا يهتفون ضد الجنرال سيمور قائد الأسطول الإنجليزى قائلين للتعبير عن استنكارهم لضربه الاسكندرية : « يا سيمور يا وش القملة ، مين قال لك تعمل دى العملة » ولو كان زعماء الثورة العرابية استعدوا من زمن طويل لحرب الإنجليز لأمكنهم الإفادة من وطنية الشعب وحماسته كثيراً ، وذلك بإنشاء معسكرات التدريب العسكرى

وتدريب عشرات الآلاف على أساليب القتال واستعمال السلاح ، وكانوا بذلك يستطيعون خلق مقاومة شعبية هائلة ، ولكنهم لم يحاولوا ذلك ، بل إن العدد الكبير الذى تطوع للقتال بجانب القوات المسلحة كان ينقصه التدريب والخبرة العسكرية نقصاً شديداً ، وكانت معلوماتهم العسكرية لا تؤهلهم لكى يخوضوا معارك عسكرية منظمة ، كما أن الإشراف العسكرى عليهم كان معدوماً ، وقد كتب عرابى فى مذكراته التى ألفها فى منفاه بعد الاحتلال الإنجليزى فى مصر يصف وطنية الشعب فقال : « وبالجملة فإن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسبق له عهد فى القرون الخالية ، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزى الأمة خير جزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها » .

إمكانيات الجيش :

ويجب أن نتكلم عن قوة الجيش المصرى واستعداداته الحربية والإمكانيات العسكرية التى يمكن أن يخوض بها المعارك ضد القوات الإنجليزية ، وفى هذا المجال نتعرض لتاريخ الأحداث التى كان لها عليه أثر ملموس من عهد الخديو إسماعيل حتى

اشتباكه فى الحرب مع الإنجليز ، وقد ذكرنا من قبل أن الجيش فى عهد إسماعيل كان يقوده بعض الضباط الشراكسة الكبار عديمى الكفاية الحربية ، وقد ظهر جهلهم العسكرى فى الحرب الحبشية التى قامت أوائل عهد إسماعيل والتى كان لها أثر كبير فى سوء حالة الجيش المصرى ، فقد حشد الخديو إسماعيل فى هذه الحروب معظم إمكانيات مصر الحربية لاحتلال الحبشة ، ولكن سوء تصرف القواد الشراكسة وقلة كفايتهم الحربية أديا إلى انهزام الجيش المصرى هزيمة ساحقة ، على الرغم من أن الجنود المصريين أظهروا شجاعة فائقة . وقد أدت هذه الحروب إلى مقتل عدد كبير من جنود الجيش المصرى المدربين وفقد الآلاف من البنادق وكثير من المدافع وسائر أنواع الأسلحة والذخائر ، مما كان له أثر كبير فى ضعف الجيش بعد ذلك النقص فى استعداداته الحربية . ولم يستطع الخديو إسماعيل بعد ذلك أن يصلح من حالة الجيش أو يزوده بالأسلحة حتى يعوض الخسائر التى لحقت بالجيش فى أسلحته وذخائره عقب حروب الحبشة ، لأن الميزانية المصرية كان أغلبها يدفع كفوائد للديون ودون أن يتبقى منها ما يخصص للجيش ، بل إن إسماعيل عمل على تخفيض عدد الجنود المصريين ، وفصل المئات من الضباط بحجة التوفير وتلافى الأزمات المالية ، ومن أثر ذلك

أن الجيش المصرى قبيل الثورة العرابية فى سنة ١٨٨١ كان ١١ ألفاً فقط وكان لهذا تأثير سيئ فى حروب مصر ضد الاعتداء الإنجليزى ؛ لأن عرابى لم يستطع أن يجمع من الجنود المدربين أكثر من ستة عشر ألفاً ، وبالإضافة إلى قلة عدد الجيش وأنه كان يعانى نقصاً كبيراً فى تسلحه — كانت أسلحته قديمة ومضى عليها زمن طويل دون عناية أو صيانة ، ولم يكن عند الجيش المصرى من وسائل الانتقال الحربى ما يمكنه من نقل أسلحته وخاصة المدافع الثقيلة بسرعة إلى ميدان المعارك .

وإذا قسنا استعدادات الجيش الإنجليزى باستعدادات القوات المصرية المحاربة — وجدنا الفرق هائلا ومخيفاً ، فقد كان عدد الجيش الإنجليزى المحارب بعد أن انضمت الإمدادات الآتية من الهند إلى الجيش الرئيسى القادم من انجلترا يزيد على خمسين ألف جندى ، أى ثلاثة أضعاف عدد الجيش المصرى ، كما أن معدات الجيش الإنجليزى الحربية كانت هائلة ، وأسلحته من أحدث الأسلحة ، وقد استطاعت قيادة الجيش الإنجليزى أن تحصل على بيانات مفصلة ووافية عن قوة الجيش المصرى ، واستعداداته العسكرية ، وحصانة مواقعه

بالجبهات المختلفة ، وكان ذلك بمساعدة الخديو توفيق الخائن وأتباعه من ضباط الجيش الذين انضم نفر منهم إلى صفوف المحاربين ، وقد زادت هذه المعلومات فى متانة مركز الجيش الإنجليزى وخاصة أن المصريين كانوا يجهلون كل شىء عن قوة الجيش الإنجليزى ومعداته العسكرية .

وقد عرف الإنجليز من هذه البيانات أن الجيش المصرى قد تحصن فى كفر الدوار بقوات تبلغ ثمانية آلاف جندى ، وفى أبى قير بما يقرب من ثلاثة آلاف ، وفى دمياط كان عدد الجنود خمسة آلاف ، وأقل من نصف هذا العدد فى معسكرات رشيد ، كما عرفوا منها أيضاً أن تحصين البلاد من ناحية قناة السويس فى غاية الضعف ، وأن معسكر الجيش المصرى فى التل الكبير لا يوجد فيه إلا نفر من الجنود المصريين والأهالى المتطوعين ؛ وعلى هذا الأساس وضعوا خطتهم الحربية لاحتلال مصر والزحف على العاصمة عن طريق قناة السويس .

مؤامرة احتلال القناة :

وقد كان احتلال قناة السويس مهزلة كبرى اشتركت فى تدبيرها شركة القناة الأجنبية ، فقد استغل الإنجليز — عن

طريقها ــ مبدأ حياد القناة أسوأ استغلال ، فقد كانت القيادة المصرية ترى أن من الإجراءات العسكرية اللازمة لوقاية البلاد سد قناة السويس ، وذلك لسببين على جانب كبير من الأهمية : أولهما أن الإمدادات الإنجليزية القادمة من المعسكرات الإنجليزية بالهند لن تستطيع فى حالة سد القناة أن تتلاقى فى سرعة مع الإمدادات القادمة من إنجلترا عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، وفى هذه الحالة يلجأ الإنجليز إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وهذا من شأنه أن يؤخر الهجوم الإنجليزى بضعة أشهر يستطيع فيها الجيش المصرى أن يزيد قوته ويكمل استعداده ، والسبب الآخر أن الإنجليز فى حالة احتلالهم قناة السويس يستطيعون بسهولة أن يهاجموا مصر من طريق الإسماعيلية " التل الكبير ــ القاهرة " ؛ نظراً لضعف تحصينات هذه المنطقة . وقد كان من أكبر أنصار فكرة سد القناة محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، وهو يعد من أكفأ القواد الحربيين ، وأيده فى ذلك القواد العسكريون المصريون جميعاً .

وهنا بدأ الدور القذر الذى أدته شركة قناة السويس برئاسة ديلسبس ؛ فقد تعهد هذا لعرابى بمنع الأسطول الإنجليزى من دخول قناة السويس ، وأرسل إليه برقية يقول فيها : إنه

سيمنع دخول سفن الإنجليز الحربية لمياه القناة ولو أدى الأمر إلى الاستعانة بنفوذ الحكومة الفرنسية ، وكان من أكبر أخطاء عرابى تردده فى سد القناة ، وانخداعه بالمؤامرة القذرة التى دبرها الإنجليز مع ديلسبس . وفى هذا الموقف الدقيق كان على عرابى أن ينفذ على الفور ما يتطلبه أمن البلاد وسلامتها ، دون أن ينظر لأى اعتبارات أخرى ، والإنجليز الذين ضربوا الإسكندرية بوحشية ودمروها متعللين بأسباب واهية لا تبرر هذه الوحشية — لن يسمحوا لحياد القناة بأن يقف عقبة فى طريق احتلالهم لمصر وكان يجب على عرابى أن يدرك أن فرنسا لم تكن لتحرك ساكناً حين تعتدى إنجلترا على حياد القناة ؛ لأنها كانت تؤيد جميع خطوات إنجلترا العدوانية حيال مصر . وقد ظهرت نية الإنجليز لاحتلال القناة عندما تحرك الأسطول الإنجليزى من الإسكندرية متجهاً إلى بور سعيد وفيه عدد كبير من البواخر حاملات الجنود التى كانت تقل معظم جنود الجيش الإنجليزى ، فبلغها فى ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٨٢ ، ونزلت وحدات من الجيش فاحتلت بور سعيد دون مقاومة تذكر ، ثم اقتحم الأسطول القناة متجهاً إلى الإسماعيلية ، فاحتلها ، واتخذها الجنرال « ولسلى » القائد العام للقوات الإنجليزية مقراً لقيادته ، وقاعدة للزحف إلى العاصمة .

وكان أقرب مركز للجيش المصرى من الإسماعيلية هو معسكر « نفيشة » وهو لا يبعد إلا ثلاثة كيلومترات فقط عن الإسماعيلية، وقد بدأ الأسطول الإنجليزى يهاجم هذا المعسكر فى نفس اليوم الذى احتل فيه قناة السويس ، وأخذت مدفعية الأسطول تمطره بقنابلها الثقيلة مما ساعد مشاة الجيش الإنجليزى على احتلاله بسهولة ويسر ، بعد مقاومة عابرة ، وتلا احتلال معسكر نفيشة بعض المعارك العنيفة بين القوات الإنجليزية وبين الجيش المصرى ، وقد انهزم المصريون فى هذه المعارك ؛ لأن هجوم الإنجليز عن طريق القناة كان مفاجئاً لم يتخذوا له الاستعداد الكافى والتحصين اللازم ، وواصل الإنجليز الزحف فاستولوا على « المحسمة » فى ٢٥ من أغسطس وهى بلدة تبعد حوالى ٢٤ كيلومتراً من التل الكبير ، كما استولوا على «القصاصين» فى ٢٦ من أغسطس ، وبذلك أصبحت تفصلهم عن التل الكبير مسافة صغيرة جداً لا تجاوز خمسة عشر كيلومتراً . وقد كان لانهزام المصريين فى هذه الوقائع أسوأ الأثر فى مركزهم الحربى وحالتهم النفسية ، وذلك نتيجة للخسائر المادية الجسيمة التى أصيب بها الجيش المصرى فى أسلحته وذخائره ، كما أسر فى هذه المعارك ضباط مصريون وعلى رأسهم محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش

المصرى وواضع جميع خطط القتال الحربية . وقد بدأت القيادة المصرية فى إجراء انتقالات عسكرية سريعة ؛ لتواجه الهجوم الإنجليزى عن طريق قناة السويس ، فأرسلت الإمدادات من معسكرات دمياط وكفر الدوار إلى التل الكبير ، وقد ترك عرابى كفر الدوار وذهب إليها ؛ ليشرف على القتال ويكون على كثب من المعركة ، ووضعت القياده المصرية خطة حربية جديدة ؛ لتواجه التطورات التى حدثت نتيجة لزحف الإنجليز عن طريق قناة السويس ، وتبعاً لهذه الخطة بدأ الجيش المصرى الهجوم على مواقع الإنجليز فى « القصاصين » فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٨٨٢ ، وكان يقود الجيش راشد باشا حسنى خلفاً لمحمود فهمى ، وكان يساعده فى القيادة محمود سامى باشا البارودى ، وعلى باشا فهمى ، وقد استطاع المصريون فى بداية القتال أن يهزموا الإنجليز ويحتلوا بعضاً من مواقعهم ، ولكن الإنجليز استطاعوا بقوات كبيرة ، وبعد قتال عنيف ، وبتأييد مدفعيتهم الثقيلة التى كانت تتفوق على المدفعية المصرية أن يستردوا مواقعهم ، وانسحبت القوات المصرية بعد أن كبدت الإنجليز حوالى سبعين قتيلا وجريحاً ، فى معركة استغرقت وقتاً طويلا ، وبعد ذلك أخذ كل من الفريقين يجمع قواته استعداداً للمعركة الفاصلة .

وقد وضعت القيادة المصرية ترتيباً محكماً للهجوم على مواقع الإنجليز فى القصاصين كان كفيلا بهزيمة الإنجليز والقضاء على قوتهم العسكرية قضاء تاماً ؛ وذلك بأن تتقدم القوات المصرية فى الليل ؛ لتحاصر مواقع العدو فى القصاصين ثم تهجم عليها هجوماً فجائياً عند الفجر ، وقد قسم الجيش المصرى المهاجم إلى ثلاثة أقسام ، أحدها بقيادة محمود سامى البارودى لحصار مواقع الإنجليز من اليمين ، والآخر بقيادة على فهمى لحصارها من الشمال ، والقسم الثالث بقيادة راشد حسنى باشا وكان دوره أن يهاجم المواقع الأمامية ، واتفق على أن يكون الهجوم المفاجىء فى فجر ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨٣ .

وقد لعبت الخيانة أقذر أدوارها فى هذه الفترة من الحرب : فإن الأميرالاى على يوسف خنفس أثرت الرشاوى الإنجليزية فى نفسه الضعيفة ، فجعل من نفسه جاسوساً للإنجليز داخل صفوف الجيش المصرى الباسل ، ذلك الخائن لم يتورع عن أن يسلم للإنجليز أسرار ذلك الترتيب الحربى الذى وضعته القيادة المصرية ؛ بل إن نذالته بلغت حداً جعلته يوضح للإنجليز كيفية إحباط الترتيب العسكرى المصرى ، والعمل على تبديد هجوم المصريين ؛ وعندما بدأت القوات المصرية الهجوم فى

الموعد المحدد وجدت أن الجيش الإنجليزى قد استعد لمقابلة هذا الهجوم، واتخذ أهبته له، بل إنه كان مطلعاً على أدق أسرار خطة الهجوم المصرى، وهكذا ضاع عنصر المفاجأة الذى كان فى صالح المصريين .

وقد بدأ الجيش الإنجليزى إطلاق مدافع الميدان الثقيلة على مقدمة القوات المصرية التى كانت تتأهب لإحكام الحصار على المواقع الإنجليزية ، وقد ثبت الجيش المصرى ثباتاً عجيباً على الرغم من القنابل التى كانت تتساقط عليه ومن حوله ، وقاتل الجنود والضباط ببسالة منقطعة النظير ، وواصلوا القتال من الفجر حتى الليل ، وجرح فى هذه المعركة القائدان راشد باشا حسنى ،وعلى باشا فهمى ؛ مما جعل قيادتهما للقتال متعذرة وكذلك جرح مئات من الجنود والضباط فى هذه المعركة واحتاجوا للإسعاف السريع ، فاضطرت القوات المصرية إلى الانسحاب نحو التل الكبير ، وبعد انتصار الإنجليز فى هذه المعركة أصبح هدفهم التالى هو التل الكبير .

الحرب النفسية :

وفى أثناء هذه المواقع الحربية كان الإنجليز يشنون حرباً نفسية أخرى داخل البلاد ؛ لبث الفرقة والخلاف فى صفوف الشعب ، ومن بعض وسائلهم التى استخدموها فى هذه الحرب النفسية استصدار منشور من سلطان الدولة العثمانية ، يعلن عصيان عرابى وخروجه على طاعته ، وقد ضغط الإنجليز على السلطان ليصدر هذا المنشور ؛ لاعتقادهم أن بعض الطبقات الرجعية فى مصر لا تزال تكن الولاء للسلطان ، وتؤمن بأنه خليفة المسلمين فى كل بقاع الأرض ، وترى أن الخروج على طاعته خروج على شرائع الدين الإسلامى ، وقد وزع الإنجليز بوساطة الخديو وأتباعه عشرات الآلاف من هذا المنشور على أفراد الشعب ، وأعقبوه بحملة ضخمة من «الدعاية» ضد الثورة العرابية ، أحدثت ارتباكاً خطيراً فى صفوف المصريين وساعدت على بلبلة الأفكار ، وإشاعة القلق والاضطراب ، وكان زعماء الثورة منهمكين فى قيادة المعارك الحربية ؛ فلم يتح لهم مكافحة ذلك المنشور وأثره السيئ فى الشعب ، وخاصة أن العرابيين كانوا يعتمدون على تأييد سلطان الدولة العثمانية ،

ويتخذون من رضائه الظاهرى عن أعمالهم الوطنية سلاحًا مهمًّا فى خلافهم مع الخديو ، لذلك كان إعلان السلطان عصيان عرابى ضربة قاسية للثورة العرابية ، وخاصة فى هذه الظروف الحرجة التى يستعد فيها الجيش المصرى بقيادة عرابى لحرب ضد الإنجليز ، وقد رحب الخديو بقرار السلطان العثمانى وعده تأييداً له فى انضمامه إلى صفوف الإنجليز وتحبيذاً لخيانته ، وقد كان لهذه الحرب النفسية التى يشنها الإنجليز أثر أدى إلى الاستسلام التام فى جميع أنحاء البلاد عقب هزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير .

معركة التل الكبير :

فى مساء ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ قرر الجنرال « ولسلى » الزحف على مواقع المصريين فى التل الكبير ، ووضع خطة الهجوم بمساعدة بعض ضباط الجيش المصرى الخائنين العارفين أدق التفصيلات عن تحصينات التل الكبير ، وقد تولى إرشاد الجيش الإنجليزى إلى المواقع المصرية بعض العربان المرتشين ، وكان يعسكر فى التل الكبير نحو عشرة آلاف جندى ومئات من المتطوعين الذين لم يدربوا على استعمال السلاح إطلاقاً .

وقد تولى قيادة الجيش المصرى على باشا الروبى بعد إصابة راشد باشا حسنى ، وعلى باشا فهمى ، ولم يكن الجيش بعد قد استعاد قوته واستعداده عقب هجومه الأخير على الإنجليز وكان قد نتج عن ذلك نقص خطير فى الذخيرة وخاصة فى ذخائر الأسلحة الثقيلة التى كانت غير متوافرة لدى القوات المصرية . وفى فجر ١٣ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ وصل الجيش الإنجليزى إلى منطقة قريبة جداً من التل الكبير ، فلم يكن يفصل الإنجليز عن خطوط الدفاع المصرية إلا مسافة لا تزيد كثيراً على مائة متر ، ولم يصادف الجيش الإنجليزى فى تقدمه أى مقاومة ، وينسب إلى القواد الخونة فى جيش عرابى أنهم عملوا على أن يكون الطريق إلى التل الكبير خالياً من قوات الجيش المصرى الاستكشافية ؛ مما جعل الهجوم الإنجليزى مفاجئاً غير متوقع .

وبينما كان الجنود المصريون جميعاً نائمين ما عدا عدداً قليلا من الحراس شن الإنجليز هجوماً شديداً على المواقع المصرية الأمامية ، وأدى ذلك إلى وقوع الاضطراب والارتباك فى صفوف المصريين وكان الوقت الذى استغرقه الجنود النائمون فى تجهيز أسلحتهم واستعدادهم للقتال كافياً لأن يستولى الإنجليز على المواقع الأمامية .

وقد وضع الإنجليز مدافع الميدان بحيث تحاصر مواقع الجيش المصرى على شكل نصف دائرة ، وكان عدد هذه المدافع يربو على ستين مدفعاً ، وهو عدد كاف جداً لتدمير معسكرات الجيش المصرى ومواقعه فى التل الكبير ، وخاصة أن هذه المدافع وضعت على مسافة قريبة جداً منها ، ساعدت على إحكام الإصابة فكانت القذائف الإنجليزية تفتك بالجنود المصريين فتكاً شديداً ، وتصيب المواقع المصرية إصابات قوية مباشرة ، ومع أن سير القتال فى هذه المعركة كان لصالح الإنجليز ، وأن الهزيمة كانت متوقعة للجيش المصرى — فقد ظهرت بطولات فردية عظيمة تنتزع الإعجاب ، وتستحق التخليد وكان أظهرها بطولة القائد المصرى الباسل « محمد عبيد » الذى كان يقود بعض الفرق السودانية فقد ثبت بجنوده لنيران الإنجليز ثباتاً نادر المثال ، وظل هو وجنوده يقاتلون طوال المعركة دون أن يتقهقروا خطوة حتى استشهدوا جميعاً ، ومعهم « محمد عبيد» الذى ضرب أروع الأمثال فى البطولة العسكرية ، وكانت من الفرق المصرية التى استبسلت فى القتال أيضاً فرقة المدفعية بقيادة « حسن رضوان » فقد استمر يطلق نيران مدافعه على الجيش الإنجليزى المهاجم حتى نهاية الموقعة ، وأصيب إصابة

جسيمة ، ولكن ذلك لم يمنعه من القيام بواجبه حتى اللحظات الأخيرة .

وقد تشتت الآلاف من الجنود المصريين ، وتخلوا عن ميدان المعركة ، مذعورين من الهجوم الإنجليزى المفاجىء ولم يبق فى أرض المعركة إلا عدد صغير من الجنود قتل معظمهم ولم تستغرق هذه المعركة — مع أنها المعركة الأخيرة الفاصلة فى الحرب — إلا أقل من نصف ساعة ، استطاع الجيش الإنجليزى بعدها احتلال التل الكبير بعد خسائر قليلة تبلغ ٢٠ قتيلا وأربعمائة جريح ، وهى تعد خسائر تافهة جداً بالنسبة إلى خسائر المصريين التى بلغت ما يقرب من ألفين من القتلى ، وذلك العدد يزيد كثيراً على نصف عدد الجنود المصريين الذين ثبتوا فى المعركة ثباتاً فعلياً ، واشتركوا فى القتال حتى اللحظة الأخيرة .

وكان من نتائج هذه المعركة أن خسر الجيش المصرى كل المعدات الحربية والمدافع التى كانت فى التل الكبير ، وفقد كميات هائلة من المؤنة والذخيرة .

وكانت الهزيمة فى التل الكبير سبباً فى يأس كثير من الجنود المصريين فتركوا أسلحتهم ومعسكراتهم ، ورحلوا إلى بلادهم

ووجدت القيادة المصرية أن إنشاء خط دفاعى جديد يحتاج إلى جهود ضخمة ووقت طويل ، ولم يكن الوقت متسعاً فى هذه الظروف ؛ فإن الجنرال ولسلى كان يواصل زحفه متقدماً إلى القاهرة بعد أن احتل بلبيس فى طريقه إليها ، فاستقر الرأى على التسليم ، ودخلت الجيوش الإنجليزية القاهرة فى مساء ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ . بدون مقاومة ، وقبضوا على زعماء الثورة العرابية .

الاحتلال :

وعند وصول طلائع الإنجليز إلى ضواحى القاهرة ، ثارت جماهير الشعب فيها ، وتظاهرت جموعها مصممة على قتال الإنجليز ، وتسلح ببعض الأسلحة البيضاء كالمدى والسكاكين وحملوا العصى الغليظة ، واتجهوا إلى حدود القاهرة ؛ للاشتباك مع الجنود الإنجليز ، وليقاموا احتلالهم للمدينة ، ولكن محافظ القاهرة وجد أن حماسة الشعب قد تؤدى إلى وقوع مذابح دامية ، فعمل على تهدئة الحالة ، ومنع الاحتكاك بين الأهالى والقوات الإنجليزية .

وباستسلام العاصمة حدثت النهاية المحزنة ، واستسلمت

قوات الجيش المصرى الموجودة فى المواقع المختلفة ، وتفرق الجنود نازحين إلى بلادهم ، وتسلم الإنجليز معسكرات كفر الدوار ، ودمياط ، ورشيد ، وبذلك خضعت البلاد للاحتلال الإنجليزى.

بقى أن نقول شيئاً واحداً فقط وهو أن الخديو توفيق أرسل يهنىء القيادة الإنجليزية بانتصاراتها الباهرة على الجيش المصرى!!

— ٤ —

بين الثورتين

١٨٨٢ — ١٩٥٢

من أحداث الثورة العرابية نرى أنها متشابهة إلى حد كبير مع أحداث الثورة المصرية الحديثة التى بدأت فى يوليوسنة١٩٥٢ بزعامة جمال عبد الناصر ؛ فكلتا الثورتين قام بهـا الجيش لمناهضة حكم الأسرة العلوية الفاسد،ولإصلاح الأحوال الداخلية السيئة ، وكلتا الثورتين تعرضتا لاعتداء أجنبي مسلح : فالثورة العرابية تعرضت للاعتداء الإنجليزى فى يوليو سنة ١٨٨٢ . والثورة المصرية الحديثة تعرضت للاعتداء الثلاثى الذى قامت به كل من إنجلترا، وفرنسا ، وإسرائيل فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ . ولكن الظروف التى أحاطت بكل من الثورتين كانت تختلف اختلافاً كبيراً مما أدى إلى فشل الثورة العرابية وإلى نجاح ثورة سنة ١٩٥٢ .

وإن من يتأمل فى أحداث هاتين الثورتين يجد أن التاريخ

يعيد نفسه، ولكن مصر فى هذه الثورة الأخيرة تحكمت فى التاريخ وانتصرت . وفى هذا الفصل نقارن مقارنة تحليلية بين كل من الثورتين . ونبحث فى شىء من التفصيل الظروف التى لابست كلا منهما، وكيف فشلت الأولى، ونجحت الثانية، وأسباب الفشل وأسباب النجاح ، وكيف أن ثورة ٢٣ يوليو تجنبت أخطاء الثورة العرابية . واستفادت من تجاربها .

الوعى القومى :

وإذا استعرضنا هذه الظروف وجدنا فى مقدمتها أن الوعى القومى فى مصر قبيل ثورة ٢٣ يوليو سنة١٩٥٢ كان عظيما نتيجة للكفاح الشعبي ضد الاحتلال الإنجليزى أكثر من سبعين عاماً، ولحدوث ثورات كثيرة سبقت هذه الثورة .

وكان من نتائج هذا الوعى القومى العظيم أن الشعب أدرك أن له دوراً إيجابياً فى الكفاح الوطنى ، فبدأ يتدخل ويقف إلى جانب العناصر الوطنية ويؤيدها بكل ما يملك من قوة . بعد أن كان موقفه يكاد يكون سلبياً فى الصراع بين العناصر الوطنية من ناحية وبين الاستعمار والعرش من ناحية أخرى ، وظهر ذلك واضحاً ملموساً سنة ١٩٥١ حين اشترك الشعب اشتراكاً

فعلياً فى مقاومة الإنجليز بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ؛ فتكونت كتائب عسكرية تضم العمال والطلبة وغيرهم من أفراد الشعب . واستطاعت تلك الكتائب رغم النقص الشديد فى معداتها العسكرية — أن تشن هجمات ناجحة على المعسكرات الإنجليزية مستخدمة فى ذلك وسائل حرب العصابات .

وظهر الوعى الشعبى مرة أخرى حين أراد فاروق أن يقضى على هذه الكتائب العسكرية ؛ ويوقف حرب العصابات ؛ لأنه رأى فيها خطراً عظيماً على عرشه . فقد قامت المظاهرات الشعبية الصاخبة تهتف بسقوط فاروق وأعوانه الخونة ، وحدثت اشتباكات دامية . وامتلأت المعتقلات بمئات المسجونين السياسيين . وفى هذا الوقت — قبيل الثورة المصرية الأخيرة مباشرة — كان الشعب جميعه يتطلع إلى حركة ثورية تخلصه من حكم الملكية الفاسد ، وكان الأمل الوحيد أن يقوم الجيش بهذه الثورة ، بل لا أجانب الصواب إذا قلت : إن كل فرد كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن الجيش لابد أن يثور ، ولابد أن يقضى على الطاغية .

والوعى الشعبى فى مصر كان له أساس عميق من تجارب الشعب السابقة وخبرته الطويلة . ومن أمثلة ذلك أن الشعب كان يعتقد أن المفاوضات بين الحكومات المتعددة وبين

الإنجليز قد تؤدى إلى حل سلمى ، وإلى جلاء جيوش الاستعمار عن أرض مصر ، ثم أدرك أن هذه المفاوضات ما هى إلا تمثيلية أو مهزلة لتخدير أعصابه والقضاء على حماسه ، وأنه لا يمكن أن تكون هذه المفاوضات ناجحة ومجدية إلا إذا قامت بها حكومة وطنية قوية ليست ألعوبة فى يد الاستعمار ولا خاضعة لنفوذه .

وكان الشعب يعتقد أن الأحزاب كانت تتنافس فى العمل لمصلحة الوطن والنهوض به . ثم أدرك أن هذه الأحزاب تبحث عن مصالح شخصية ، وأن كل أهدافها أن تصل إلى الحكم ، حتى ولو استعانت فى ذلك بنفوذ الاستعمار ، وأنها ما تكاد تصل حتى تغمض عينيها عن الفساد المنتشر فى كل جزء من الإدارة الحكومية ، بل إنها كانت توزع المناصب على أتباعها وتضعهم فى الوظائف الهامة دون نظر إلى كفاءتهم أو مؤهلاتهم .

وكذلك كان الشعب يعتقد أن العرش قد يجمع بين هذه الأحزاب ويوحد كلمتها ، ثم أثبتت له التجارب أن العرش إنما يضرب هذه الأحزاب بعضها ببعض ، ويشغلها بالخلافات الحزبية حتى يضعف من شأنها ويكون له المركز الأول فى البلاد ، بل إن العرش نفسه كان جذراً من جذور الفساد فى مصر .

أصبح الشعب يؤمن بفساد الأحزاب ، وبفساد العرش ، وبفساد هؤلاء الزعماء محترفى السياسة الذين يظهرون على المسرح كلما أراد لهم الاستعمار أن يظهروا ، ويختفون كلما أراد لهم الاستعمار أن يختفوا .

إن الوعى القومى الذى اكتسبه الشعب من هذه التجارب المتلاحقة جعله يؤيد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ حين قامت كل التأييد ، ويستقبل إعلان الجمهورية وسقوط الملكية بحماس عظيم ، ويرى فى إلغاء الأحزاب بشيراً لعهد جديد من الإصلاح والتعمير .

وقد ظهر الوعى القومى بصورة رائعـــة حين قابل حرب الإشاعات التى كان يشنها الاستعمار على مصر فى أوائل عهد الثورة ، وفى أثناء الاعتداء الثلاثى باستخفاف وعدم اكتراث . وكان الشعب يربأ بأذنيه عن أن يسمع دعايات إسرائيل والاستعمار المغرضة . وقد كانت صدمة قوية للاستعمار حين ظن أن دعاياته المسمومة ستجد أرضاً خصبة لدى الجماهير ، وأنها ستثور على جمال عبد الناصر ، فإذا به يجد الشعب صفًّا واحداً يقابله بالموت والهلاك فى بور سعيد ويحمل السلاح دفاعاً عن وطنه وعن حكومة ثورته .

أما قبيل ثورته العرابية فلم يكن الوعى القومى ناضجاً ، ولم يكن هناك من يقف فى وجه الخديو والنفوذ الأجنبى إلا عدد قليل من الوطنيين ، ونستطيع أن ننسب ذلك إلى عدة عوامل : أهمها الجهل المطبق المنتشر فى كل أنحاء مصر ، فمعظم الشعب كان يكن للخديو هيبة عظيمة ، أليس هو معيَّن من قبل سلطان تركيا خليفة المسلمين وظل الله على الأرض ؟ ! ! لذلك كان يقابل ثورة عرابى فى أول الأمر بالتحفظ ، وما لبث هذا التحفظ أن تحول إلى عطف على عرابى وتأييد له ، ولكنه تأييد لا يتعدى حدود السلبية . نعم ! خرج كثير من أفراد الشعب عن جمودهم وسلبيتهم فى أثناء الاعتداء الإنجليزى المسلح ، ولكن الوقت كان قد فات ، فلم تستفد البلاد كثيراً من تأييدهم الإيجابى للثورة العرابية .

وقد استغل الإنجليز جهل عامة الشعب وضعف الوعى القومى أكبر استغلال ؛ فحرضوا سلطان تركيا لكى يصدر منشوراً يعلن فيه عصيان عرابى وخروجه عن طاعته ، وأن كل مساعدة تقدم له تعتبر عصياناً وخروجاً عن الطاعة . وقد سبب هذا المنشور اضطراباً غير قليل فى صفوف المصريين . وسبب آخر غير الجهل ؛ ذلك أنه لم يكن هناك ارتباط وثيق بين مختلف أنحاء البلاد ، وأن الثورة كانت مركزة فى القاهرة .

فقد كانت هى المركز الوحيد للحركة الوطنية ، أما سائر المدن المصرية فكان النشاط الوطنى فيها ضعيفاً راكداً .

ثم إن هناك عاملا مهماً لا يجوز أن ننساه ، لما له من الأثر الكبير فى ضعف الوعى القومى ؛ وهو أن الشعب المصرى بصفة عامة كان قليل الخبرة فى الناحية السياسية ، ذلك لأن حكام مصر من الأسرة العلوية فى أثناء حكمهم الاستبدادى حرموا على الشعب المصرى التدخل فى الشئون السياسية ، كما أن بعض الهيئات والأحزاب السياسية التى تكونت قبيل الثورة العرابية استهدفت لمختلف ألوان الاضطهاد ، وتعرض أعضاؤها للنفى والتشريد ، فكان هذا باعثاً للكثير على أن يتجنب السياسة لتصبح وقفاً على الخديو وأتباعه من الشراكسة .

ولكننا نستطيع أن نقول بصفة عامة : إن الوعى القومى بدأ يظهر فى خلال الثورة العرابية ، وأنه أخذ ينمو ويشتد فى خلال السبعين عاماً التالية فمهد لثورة ٢٣ يوليه ، وساعد على نجاحها .

٥

الإصلاح الداخلى :

وهناك ناحية أخرى تجاهلتها الثورة العرابية على حين عالجتها الثورة المصرية الحديثة بمهارة وحذق. وهذه الناحية هى الإصلاح

الداخلى والقضاء على الخلافات الداخلية .

وكانت أول خطوة وأهمها فى سبيل الإصلاح الداخلى هى عزل فاروق وطرده خارج البلاد ؛ فقد كان وجود فاروق على على عرش مصر مبعثاً لصراع داخلى خطير بين فاروق تؤيده العناصر الرجعية وقوى الاستعمار . وبين رجال الثورة يؤيدهم الجيش والشعب . وكان هذا الصراع حرياً بأن يكون وبالا على الأمة بأسرها . وقد حاول فاروق فعلا أن يتصل بقوات الجيش الإنجليزى فى الفترة ما بين ٢٣ يوليو و ٢٦ يوليو ؛ ليستعين بهم ضد وحدات الجيش المصرى التى قامت بالثورة . ولكن خيانته قدر لها الفشل .

وبعد طرد فاروق من البلاد كانت هناك طبقة الإقطاعيين التى كانت تستند فاروق فى حكمه . وهذه الطبقة تبسط نفوذها على معظم الأحزاب السياسية الموجودة فى ذلك العهد ، ثم كانت هناك أيضاً قوات الاحتلال . وكان على الثورة المصرية الحديثة أن تواجه الرجعية والاستعمار معاً ؛ فالطبقة الإقطاعية الرجعية ترى فى الثورة تهديداً لمصالحها ونفوذها . وخاصة بعد أن صدر قانون الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية الزراعية . والاستعمار يرى أن هذه الثورة لن تغمض عينيها عن مطالب الشعب الوطنية وأنها ستركز كل جهودها وتعبئ كل قواها للقضاء عليه . فكان

يتحين الفرص لإسقاط حكومة الثورة .

وقد تصرف رجال الثورة تصرفاً حكيما حين قرروا أن يبدءوا بالإصلاح الداخلى وأن يواجهوا الطبقة الرجعية قبل الصراع مع الاستعمار . فأصدرت حكومة الثورة قانوناً بإلغاء الأحزاب السياسية ، وهى كما سبق أن قلنا تخضع لنفوذ الإقطاعيين والرجعيين ، وأدت هذه الخطوة إلى القضاء على الخلافات الحزبية التى كانت تشغل الرأي العام فى وقت نحن أحوج فيه إلى الوحدة والتماسك والاهتمام بالإصلاحات ، ومواجهة المستعمر صفاً واحداً . كما كان فى هذه الخطوة أيضاً القضاء على نشاط الأحزاب المريب ضد الحركة الوطنية .

ورغم إلغاء الأحزاب قد خرج بعض الرجعيين من محترفى السياسة من جحورهم محاولين عرقلة الحركة الوطنية ، فكان تصرف الثورة الحاسم هو تقديمهم إلى محاكم الثورة ومحاكم الغدر التى تألفت فى ذلك الحين .

وقد تولت هذه المحاكم إظهار ماضيهم السياسى الملوث ، وأصدرت أحكاماً صارمة عادلة كان فيها القضاء على مفاسدهم ونشاطهم المريب ضد الحركة الوطنية ، وقد أدت جهود الثورة فى التطهير الداخلى إلى وحدة الأمة وتماسكها فاستطاعت أن

تواجه الاستعمار وتنتصر عليه .

ولم يكن الإصلاح الداخلى مقتصراً على الخلافات الداخلية فحسب ، بل كان يشمل النهوض باقتصاديات البلاد ، وتطهير الأداة الحكومية وتنظيمها وما إلى ذلك حتى يتكون أساس قوي تستطيع الثورة أن تعتمد عليه فى طريقها التقدمى ، فعند قيام ثورة ٢٣ يوليو كانت البلاد تعانى أزمة مالية شديدة ، وكان العجز فى ميزانية الدولة خطيراً . وذلك نتيجة لسوء تصرف الحكومات الحزبية السابقة ، كما أن الملك كان يبتز جزءاً غير قليل من إيرادات الدولة . وكان يملك هو والأسرة المالكة الألوف من الأفدنة لا يدفعون عنها ضرائب ، كما أن الإقطاعيين كانوا يتهربون من الضرائب بمختلف الطرق ، ولا يدفعون إلا القليل.

وقد أدي إهمال الحكومات المختلفة لتنمية الإنتاج القومى إلى انخفاض كبير فى الميزانية ، ولم تكن الثورة لتستطيع أن تواجه الاستعمار باقتصاد منهار . ومالية ضعيفة. فقد يؤدي ذلك إلى نكسة الثورة ، فوجهت الكثير من اهتمامها إلى النهوض بالإنتاج . واهتمت بنوع خاص بتصنيع البلاد ؛ لأن مواردها الزراعية محدودة .

وكان أهم عامل يساعد الثورة فى مشروعاتها التقدمية أن تجعل الإدارة الحكومية نظيفة سليمة ذات كفاءة . وسبق أن

أشرنا إلى أن الحكومات السابقة عينت عدداً كبيراً من الموظفين من أتباعها ومحاسيبها وتنقصهم النزاهة والكفاءة ، كما أن الروتين الحكومى يعرقل المشروعات الإصلاحية . وقد عالجت حكومة الثورة الفساد فى الإدارة الحكومية بسرعة وحزم ؛ فأخرجت كل من ثبت فساده وعدم كفاءته من الموظفين ، وقضت على كثير من الإجراءات الروتينية المعقدة التى تعرقل حركة الإصلاح .

ومن ذلك نجد أن ثورة ٢٣ يوليو قد اهتمت بالإصلاح الداخلى قبل مواجهتها القوى الاستعمارية ، ولم تحارب فى الميدانين فى وقت واحد : وبذلك استطاعت أن تقف على قدميها وتنجح .

أما الثورة العرابية فقد كان تصرفها فى هذا الصدد يبعد بعض الشىء عن الحكمة ؛ فقد بدأت صراعها ضد التدخل الأجنبى وفى الوقت نفسه كان الخلاف والنزاع مستحكماً بين زعماء الثورة والخديو ، فقد قرر مجلس النواب المصرى فى يناير سنة ١٨٨٢ أن له حق الإشراف على ميزانية الدولة ، فكان ذلك بدء مقاومة النفوذ الأجنبى . وكان رد انجلترا وفرنسا على ذلك سلسلة من الإنذارات تمس سيادة مصر واستقلالها . وتبع ذلك تشديد الضغط على الحكومة المصرية وتهديدها

بالأساطيل البحرية التى وصلت قرب الإسكندرية ، وكان الصراع الداخلى ناشباً فى نفس الفترة بين الخديو وأتباعه الشراكسة من جهة، وزعماء الثورة العرابية من جهة أخرى ؛ فالخديو يحاول استعادة سلطته ونفوذه ، ومن أجل ذلك عمل لاستمالة بعض وحدات الجيش بالإغراء والرشاوى ، كما حاول أن يكتسب بعض الأتباع من الطبقة الإقطاعية ليستعين بهم فى نزاعه ضد رجال الثورة العرابية ، وبهذا تتمزق وحدة الأمة وتتسع هذه الخلافات الداخلية .

كما أن الضباط الشراكسة دبروا مؤامرة دموية لاغتيال عرابى وزملائه . وفشلت المؤامرة . وقدموا إلى المحاكمة كما سردنا ذلك من قبل .

وكانت النتيجة لصراع حكومة الثورة العرابية فى الجبهتين أن اتحدت القوى الرجعية مع الاستعمار بانضمام الخديو للإنجليز وكان ذلك أكبر عون لهم فى احتلال البلاد .

أما بالنسبة لسائر نواحى الإصلاح الداخلى كالنهوض بالإنتاج وغير ذلك مما يثبت أقدام الثورة ويدفعها إلى الأمام فلم تكن الثورة العرابية بقادرة على أن تمضى فيه شوطاً كبيراً ؛ فقد كانت الظروف التى تحيط بها شديدة القسوة . فإن حكومة

الثورة العرابية قد تسلمت زمام الحكم والبلاد ترزح تحت عبء الديون الأجنبية الفادحة ، وكانت تدفع لها كل سنة فوائد باهظة تثقل كاهل الدولة، وتعطل مشروعات الإصلاح فيها ؛ كما أن الإدارة الحكومية كانت مكتظة بالموظفين الأجانب الذين لا يمكن بحال من الأحوال أن يساعدوا حكومة الثورة العرابية فى برنامجها التقدمى .

ومن ذلك نرى أن الحالة الداخلية كانت من السوء بحيث تعد سبباً مهماً فى فشل الثورة العرابية ، بل يمكن أن ينسب إليها أيضاً أن هذه الثورة لم تعش إلا فترة قصيرة لا تتجاوز العام ، فإن الظروف الداخلية السيئة كانت أكبر مشجع على التدخل الإنجليزى المسلح .

شخصية عرابى وشخصية جمال :

ولا شك فى أن لكل من زعيمى الثورتين : ثورة سنة ١٨٨٢ ، وثورة سنة ١٩٥٢ أثراً كبيراً فى أحداثهما . وقد يتشابه الزعيمان فى النشأة الحربية . ولكن هنـــاك اختلافاً كبيراً بين شخصيتيها ؛ فأحمد عرابى تكاد تقتصر ثقافته على الناحية العسكرية . وإدراكه السياسي لا يؤهله كل التأهيل لكي

يتولى إدارة دفة البلاد السياسية . وربما لو ترك عرابى الناحية السياسية لأحد رجال السياسة المحنكين الوطنيين لاستطاع أن ينقذ البلاد ، وأن يخرج منتصراً فى الصراع الداخلى والخارجى معاً . وهناك نقطة ضعف أخرى فى عرابى ، هى أنه كان يخشى مواجهة المسئوليات الخطيرة ، ومن ذلك أنه رفض أن يعزل الخديو فى بدء الثورة العرابية . وكان كثير من ضباط الجيش والزعماء الوطنيين قد طالبوه بعزل الخديو ؛ لأنه سيكون عقبة فى طريق الإصلاح ومقاومة التدخل الأجنبى . وحجة عرابى فى رفضه أنّ عزل الخديو سيسبب الاضطرابات والفتن . وأظهرت الأيام بعد ذلك أن الخـــديو نفسه كان أساس الاضطرابات والفتن. كما أن عرابى رفض أيضاً ردم قناة السويس فى أثناء الاعتداء الإنجليزى المسلح رغم نصائح قواد جيشه بردمها . وذلك حتى لا يتحمل المسئوليات التى تنتج عن ذلك . وكان يظن أن فرنسا لن تسمح للإنجليز باستخدام القناة فى غزو مصر ، وصدق الوعود الكاذبة التى بذلت له فى ذلك ، وكانت قناة السويس هى الطريق الذى استخدمه الإنجليز لاحتلال مصر . وهذه النقطة تظهر أن خبرة عرابى السياسية كانت قليلة .

أما ميزة عرابى التى أهلته لكى يتزعم الثورة فهى جرأته

وشجاعته ؛ فقد استطاع أن يواجه الضباط الشراكسة والخديو بثبات وبسالة دون أن يهاب المحاكمة والاعتقال . كما أنه كان يملك قوة التأثير فى الجماهير ، فاستطاع أن يجمع الشعب حوله ، ويوحد كلمته ويجعله صفاً واحداً أمام الخديو وأمام التدخل الأجنبى .

ومع كل هذا نستطيع أن نقول بوجه عام إن عرابى كان شخصية عظيمة ، وأنه كان صادق الوطنية إلى حد بعيد ؛ حتى أن الاستعمار ورجال العرش فى دعايتهم المسمومة التى تلت انتهاء الثورة العرابية مباشرة لم يجدوا فيه عيباً واحداً ينقص من قدره أمام الشعب ، فأشاعوا — كاذبين — أنه كان يغرر بالشعب . وأنه كان يهدف من وراء هذه الثورة أن ينال مركزاً كبيراً ، وأن يحقق أطماعه ومصالحه الخاصة . ولكن هذه الدعاية ومثيلاتها التى كانت تردد طوال عهد الاحتلال . وتدرس للطلاب وغيرهم فى تاريخ مصر — لم تستطع أن تنال من شخصية عرابى شيئاً ؛ وأحداث هذه الثورة لا تزال تشهد بأنه زعيم وطنى عظيم له الفضل فى تنظيم أول ثورة وطنية فى تاريخ مصر الحديث .

أما جمال عبد الناصر ، فإنه إلى جانب كفايته العسكرية ذو موهبة سياسية فذة ؛ فقد كان له الفضل الأكبر فى أن يجنب

البلاد الصراع الداخلى ليفرغ لمصارعة الاستعمار ، كما ظهرت مقدرته السياسية حين عمل ليحقق الوحدة بين البلاد العربية ؛ فلها نفس الأهداف وتواجه نفس العدو .

وكان لسياسة الحياد الإيجابى التى سار عليها جمال عبد الناصر أكبر الأثر فى تكوين شخصية مستقلة للبلاد ، وتجنيبها صراع المعسكرين الشرقى والغربى والحرب الباردة بينهما ، كما أنه استطاع أن يقاوم المعسكر الغربى حين أراد أن يكبل مصر بالأحلاف العسكرية ، أو يضعها تحت سيطرته الاقتصادية وكان ثباته فى المقاومة سبب نجاح سياسة الحياد الإيجابى . والاستعمار نفسه قد شهد بمقدرة جمال عبد الناصر السياسية وأشاد بها . وخاصة حين استطاع أن يكسب تأييد معظم إفريقيا وآسيا لسياسة مصر فى مؤتمر « باندنج » .

وإذا كان أحمد عرابى قد تهيب المسئوليات الخطيرة ، فإن جمال عبد الناصر أثبت قدرته على تحمل المسئوليات الضخمة . ومن ذلك أنه لم يتردد فى عزل فاروق كما تردد عرابى فى عزل الخديو توفيق . وقد تحمل جمال عبدالناصر هذه المسئولية الخطيرة على الرغم من أن الثورة كانت فى أيامها الأولى فقد قامت الثورة فى ٢٣ يوليو . وعزل فاروق وطرد فى يوم ٢٦ من الشهر نفسه .

وقد أثبت جمال عبد الناصر هذه القدرة مرة أخرى حين أمم قناة السويس ، وواجه نتائج تأميم القناة ومنها الاعتداء الثلاثى ، والحصار الاقتصادى بثبات وصبر مما أدى إلى أن تكسب البلاد مرفقاً هاماً كان تحت سيطرة الاستعمار الأجنبى ، كما واجه مؤتمر لندن ، وهيئة المنتفعين بالقناة بحزم وإصرار حتى فشل ذلك المؤتمر وتلك الهيئة .

ومن أهم المميزات التى أهلت جمال عبد الناصر للزعامة أنه يشعر بإحساسات الشعب ، وأنه يدرك مطالبه وأهدافه كل الإدراك . وقد أكسبه ذلك شعبية رائعة . وإن المرء ليدرك ذلك من خطبه الكثيرة التى تعبر أصدق التعبير عن مشاعر الشعب .

الصراع مع الاستعمار :

وفى مجال الحديث عن الاعتداء المسلح الذى تعرضت له كل من الثورتين قد يعجب المرء ؛ فالثروة العرابية تعرضت لاعتداء من جانب دولة واحدة هى انجلترا ، ولم تنجح فى مقاومة هذا الاعتداء . على حين تعرضت الثورة المصرية الحديثة إلى اعتداء ثلاث دول فى وقت واحد ، هى انجلترا وفرنسا وإسرائيل ، ومنها اثنتان من الدول الكبرى ، ونجحت الثورة

الحديثة فى مقاومة هذا الاعتداء المسلح وانتصرت .بل إن مركز مصر الداخلى والدولى أصبح أكثر قوة بعد هذا الاعتداء .

وقد توضح المقارنة التالية ظروف كل من الثورتين واستعدادهما لمقاومة الاعتداء المسلح . ويجب أن نبدأ الحديث عن حالة الجيش وإمكانياته العسكرية ؛ فله الدور الأول فى هذه الحرب المسلحة . والجيش عند بدء الثورة العرابية إنما كان جيشاً بالاسم فقط ، أما الحقيقة الواقعة فإن الجيش لم يكن إلا عدداً قليلا من الجنود مسلحين بأقدم أنواع الأسلحة فى ذلك العهد . والتى يرجع أصلها إلى عهد محمد على،بل إن بعضها قد يصل عهده إلى تاريخ أقدم من ذلك . وكان على رأس هؤلاء الجنود بعض الضباط الشراكسة ممن تنقصهم الكفاءة الحربية والخبرة العسكرية ، فلم يهتموا كثيراً أو قليلا بتدريب الجيش على أساليب الحروب الحديثة ؛ وبذلك أصبح الجيش فى حالة من الضعف يرثى لها .

ويمكن أن ننسب حالة الجيش السيئة فى ذلك العهد إلى سببين ، أولهما : أن سلطان تركيا كان يقاوم أى مجهود يبذل لإصلاح الجيش المصري وتقويته . ومصلحته فى ذلك معروفة . وهى أن تبقى مصر دائماً دولة ضعيفة لتكون دائماً تحت سيطرته

ونفوذه . وقد نص فى الاتفاقيات التى عقدت بين سلطان تركيا وحكام مصر من الأسرة العلوية على ألا يزيد عدد الجيش المصرى عن ثمانية عشر ألفاً من الجنود . ومن هذه الاتفاقيات يتبين بوضوح الدور الذى لعبته تركيا لإضعاف قوة مصر العسكرية .

أما السبب الثانى فهو أن حكام مصر من الأسرة العلوية وجدوا أن الجيش يكلفهم كثيراً من النفقات مما لا يوافق إسرافهم وتبذيرهم الفاحش ، فأهملوا الانفاق عليه وتزويده بالمعدات الحربية الحديثة . بل إن الخديو إسماعيل بعد أن كبد البلاد الديون الجسيمة ضغط ميزانية الجيش ، وسرح آلاف الجنود وفصل عدداً كبيراً من الضباط توفيراً لمرتباتهم ، حتى إن الجيش فى ذلك العهد لم يتجاوز أحد عشر ألفاً من الجنود .

وقد حاول أحمد عرابى عندما أصبح وزيراً للحربية إصلاح حال الجيش ، فشرع فى زيادة عدده وتدريبه التدريب العسكرى الصحيح ، ولكن الأزمة الاقتصادية التى كانت تعانيها البلاد كانت عقبة كبيرة فى سبيل الإصلاح الشامل لحالة الجيش وتزويده بالمعدات الحربية الحديثة . وحتى إذا توافر المال اللازم لشراء هذه المعدات فإن حكومة الثورة العرابية ما كانت لتستطيع

استيرادها من الخارج ؛ لأن انجلترا وفرنسا كانتا تسيطران على مصانع الأسلحة فى أوروبا وتحتكران أسواقها ، ولم يكن من المعقول أن تسمحا بتزويد مصر بشيء منها فى حين أن انجلترا كانت تضمر الاعتداء المسلح عليها .

أما بالنسبة لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فلم تكن الظروف التى تواجهها بهذه القسوة ، ورغم أن حالة الجيش كانت سيئة فى بدء هذه الثورة إلا أنها لم تصل إلى الحد الذى كانت عليه فى عهد الثورة العرابية . كما أن الحالة الاقتصادية لم تكن بذلك الانهيار الذي كانت عليه فى سنة ١٨٨٢ ، وإن الثورة الحديثة فى خلال سنواتها الأولى قد استطاعت أن تقوى من مركزها ، وأن تعالج الأزمة الاقتصادية بحيث أصبحت لا تعوق تقدم الجيش وإصلاح شأنه ، ولكن العائق — كما كان فى حالة الثورة العرابية — هو استيراد الأسلحة من الخارج . وكان مصدر تسليح الجيش هو المعسكر الغربى وخاصة انجلترا ، وذلك بحكم أن الجيش مدرب على الأسلحة الإنجليزية وأساليب استخدامها فى الحروب نتيجة لسيطرتهم السابقة على الجيش فى أثناء الاحتلال الإنجليزى المشئوم .

ولم يكن من المعقول أن توافق انجلترا أو إحدى دول

المعسكر الغربى على إمداد مصر بالسلاح وهى تعرف عزمها على مقاومة الاستعمار ، والقضاء على إسرائيل صنيعة الاستعمار الغربى . ولم تكن انجلترا تظن أن مصر قد تستمد السلاح من إحدى دول الكتلة الشرقية ؛ لأنها كانت تعتقد أن مصر مازالت تحت نفوذها وسيطرتها ، وخاصة سيطرتها الاقتصادية ؛ فالاقتصاد المصرى كان إلى حد كبير مرتبطاً باقتصاد إنجلترا ، ولها عليه بعض التأثير .

ولكن مصر التى كانت تتطلع إلى استقلال حقيقى لم تتوان عن عقد صفقات كبيرة من الأسلحة الثقيلة والطائرات مع دول المعسكر الشرقى ، وخاصة روسيا وتشيكوسلوفاكيا ، وبذلك حصل الجيش المصرى على كميات ضخمة من الأسلحة الحديثة التى تضارع بل تتفوق على مثيلاتها فى الجيوش الإنجليزية والفرنسية .

وكذلك وجه رجال الثورة عناية خاصة إلى تدريب الجيش على استعمال هذه الأسلحة متبعين أحدث النظم الحربية . وقد تم ذلك فى سرعة فائقة ، حتى أنه استغرق نصف الوقت الذى قدرته الحكومات الغربية لإتمام هذا التدريب .

ولا ينبغى أن ننسى أن المصانع الحربية التى تم إنشاؤها

بمصر فى أوائل عهد الثورة قد حققت اكتفاء ذاتياً فيما يختص بالأسلحة الصغيرة .

وقد كان هناك مصدر آخر للأسلحة لا نغفل من شأنه ، وهو استيلاء حكومة الثورة على مخازن الأسلحة والذخيرة والمهمات والمنشئات الموجودة فى معسكرات القنال ، التى خلفها الإنجليز بعد جلائهم عن قاعدة القنال . وقد تم هذا الاستيلاء فى أثناء الاعتداء الثلاثى فكان نفعها عظيما فى خلال هذه الفترة الحرجة .

ومن هذا كله نتبين أن حالة الجيش كانت تختلف اختلافاً كبيراً فى كل من الثورتين عند مواجهة الاعتداء الأجنبى المسلح .

ومن أخطاء الثورة العرابية التى أدت إلى ضعف المقاومة المصرية أن استعداد رجال الثورة العرابية لمواجهة الاعتداء الإنجليزى المسلح تأخر كثيراً ، بل إن الاستعدادات للحرب كانت تعد ارتجالا والحرب ناشبة . ولعل رجال الثورة العرابية كانوا يستبعدون أن تقوم انجلترا بالهجوم على مصر . ويعتقدون أن كل الإنذارات الإنجليزية ما هى إلا مجرد تهديد كى يتخلى رجال الثورة عن سياستهم التحررية ، وحتى بعد وصول طلائع

الأسطول الإنجليزى إلى الإسكندرية ظنوا أن ذلك ما هو إلا خطوة أخرى من خطوات التهديد غير الجدى ، ولم يتيقنوا خطورة الأمر إلا بعد ضرب الإسكندرية .

ومما يزيد فى خطأ الثورة العرابية أن نية انجلترا لاحتلال مصر كانت واضحة غاية الوضوح ؛ وذلك لأن انجلترا كانت تريد السيطرة التامة على قناة السويس وهى الطريق إلى مستعمراتها فى الشرق ؛ ووجود نهضة قومية فى مصر من شأنه أن يهدد مصالح انجلترا الاستعمارية فى هذه المنطقة . وكانت جميع الأدلة المنطقية تؤكد أنها ستلجأ إلى القوة المسلحة لزيادة مصالحها الاستعمارية ، أو لصيانتها على الأقل بعد أن فشلت كل مؤامراتها وإنذاراتها فى إيقاف السياسة التحررية التى سارت مصر على نهجها .

وقد يتساءل الناس كيف كانت تستفيد الثورة العرابية من الوقت ما دام ينقصها الإمكانيات ؟ إن الثورة العرابية كانت تستطيع أن تجند مئات الألوف من الشعب . وتكوّن بذلك جبهة شعبية مسلحة تستطيع أن تقاوم الإنجليز فى كل مكان : فى القرى ، وفى المدن ، وفى الشوارع ، وفى البيوت ، وإن هذه القوة الشعبية المسلحة كانت تستطيع بوسائل حرب

العصابات التى لا تحتاج إلى إمكانيات ضخمة — أن تحطم جيش الأعداء، وأن تجعل إقامته فى البلاد مستحيلة . ولم يكن إنشاء هذه القوة صعباً ؛ فإن الإنذارات الإنجليزية التى وجهت إلى مصر أثارت حماس الشعب ، وجعلت الآلاف يقبلون على التطوع ، وقد حاولت الثورة العرابية فعلا تدريب الشعب على استعمال السلاح، ولكنها لم تدرب إلا عدداً قليلا ، كما أن التدريب كان غير كاف على الإطلاق ؛ لأنه كان تدريباً نظرياً . وإن الآلاف القليلة التى تم تدريبها لم يطلق معظمها طلقة واحدة أثناء التدريب . وقد كان لنقص التدريب العملى أثره الخطير فى أثناء الحرب ؛ لأن المتطوعين فوجئوا بأن الحالة فى الميدان تختلف كثيراً عما تعلموه فى أثناء التدريب النظرى مما سبب الارتباك فى صفوفهم .

وقد يقال : إن ضيق الوقت أمام الثورة العرابية والنقص الذى كانت تعانيه فى الأسلحة والذخيرة حالا بينهما وبين إنشاء هذه القوة العسكرية الشعبية على نطاق واسع ، وتدريبهما تدريباً عملياً كافياً على استعمال الأسلحة والذخيرة لمقاومة المحتلين . ولكن كان على الثورة العرابية وفى إمكانها أن تبكر فى الاستعدادات الحربية ، وأن تعمل على إصلاح بعض المصانع الحربية القديمة التى كانت بالقاهرة فى ذلك الحين وإعدادها

لإنتاج ما يكفى لتسليح الجيش والشعب بالأسلحة الصغيرة كالبنادق وما تحتاج إليه من ذخيرة . وبالرغم من أن هذه المصانع كانت منشأة من عهد محمد على ومهملة من عهد طويل دون صيانة أو عناية — بالرغم من هذا فإنها كانت تستطيع أن تقوم بدور هام فى الحرب المسلحة لو اهتم رجال الثورة العرابية بأمرها وإعدادها من وقت بعيد .

وقد يرى البعض أن الثورة العرابية لو بكرت فى استعدادها العسكرى لكان ذلك داعياً لأن يعجل الإنجليز هجومهم المسلح أى أن التبكير فى الاستعدادات الحربية لن يكون له أثره ، ولكن الواقع أن انجلترا ما كانت لتستطيع أن تعجل فى هجومها على مصر ؛ لأن إعداد حملتها العسكرية يستغرق كثيراً من الوقت . وخاصة أن معظم هذه الحملة من الجيوش المرابطة فى الهند ، ويتطلب نقلها ونقل معداتها الحربية وتجهيزهم للقتال شهوراً عديدة . وقد تتضاعف هذه المدة إذا أغلق المصريون قناة السويس ؛ إذ فى هذه الحالة ستجبر هذه الجيوش على السير عن طريق رأس الرجاء الصالح وهو أطول بكثير من الطريق عبر قناة السويس .

ومما سبق يتبين كيف أخطأ العرابيون بتأخير استعداداتهم

الحربية . والآن نظهر كيف استفادت حكومة ثورة سنة١٩٥٢ من هذه التجربة ؛ فقد اهتمت هذه الثورة فى أول عهدها بالاستعداد لمقاومة قوة الاستعمار المسلحة ، كما أدركت هذه الثورة أن للشعب دوره الهام فى المقاومة المسلحة ، ففتحت معسكرات التدريب فى مختلف أنحاء البلاد ليتلقى فيها المتطوعون أحدث أساليب حرب العصابات وقتال المدن . وكان الغرض الأساسى من تدريب الشعب هو مقاومة جيش الاحتلال الذى يرابط فى قاعدة القنال ، ويماطل فى الجلاء ، وحتى بعد الجلاء ظلت معسكرات التدريب تؤدى عملها ، ولم تنقطع وفى تاريخ مصر الطويل لم يقبل الشعب على التدريب العسكرى كإقباله العظيم عليه عقب تأميم قناة السويس ؛ فقد هب الشعب بجميع طوائفه وطبقاته ليدافع عن استقلاله ويحافظ عليه . وقد بذلت حكومة الثورة جهوداً كبيرة لتدريب مئات الألوف فى أقرب وقت ، فأنشأت معسكراً فى كل حى وفى كل قرية لتدريب أفراد المقاومة الشعبية على أحدث الأسلحة والذخيرة الصغيرة كالبنادق والمدافع السريعة الطلقات ، كما أن الحرس الوطنى كان قوة شعبية عسكرية أخرى . وهو يضم الشباب من الطلاب والعمال وغيرهم .

وخير دليل على نجاح هذه القوة الشعبية المسلحة هو

ما حدث فى بور سعيد ؛ فقد وزعت حكومة الثورة فى هذه المدينة الباسلة ما يقرب من نصف مليون قطعة من السلاح على أفراد الشعب . وقد كان للمقاومة الشعبية فضل كبير فى إبادة الدفعات الأولى من جنود المظلات ، وفى مقاومة احتلال المدينة أياماً عديدة ، ولقد كان الاستعمار يقدر ثمانى وأربعين ساعة لاحتلال القطر المصرى ، ولكنه لم يتمكن فى ثمان وأربعين ساعة من احتلال مدينة صغيرة على الساحل . وقد كان فى هذا ضربة قاضية على أحلامهم فى احتلال مصر .

وهناك بعض العوامل الأخرى ساعدت مصر وأدت إلى انتصارها ، منها تأييد الشعوب العربية لمصر تأييداً إيجابياً ؛ فقد نسفت أنابيب البترول فى سوريا وفى البحرين ، وقطعت بعض الدول العربية علاقاتها السياسية والاقتصادية مع كل من انجلترا وفرنسا ، وقد كان لانقطاع البترول عن أوروبا أكبر الأثر ، فقد أدى إلى أزمات اقتصادية عنيفة فى كل من انجلترا وفرنسا . لاعتماد التصنيع هناك على البترول اعتماداً كبيراً .

ومن هذه العوامل عامل آخر له أهميته ، ذلك هو وقوف روسيا ودول الكتلة السوفيتية إلى جانب مصر موقفاً إيجابياً ،

فقد أرسلت روسيا إنذاراً شديداً إلى الدول المعتدية ، وأعلنت أنها سترسل متطوعين للقتال بجانب القوات المصرية فى حالة طلب الحكومة المصرية ذلك . وقد أحدث الإنذار الروسى رد فعل كبير فى كل من البلاد المعتدية نظراً لقوة روسيا العسكرية الهائلة ، وكان له أثر كبير فى إيقاف القتال وإجلاء المحتلين عن بور سعيد .

وفى مجال المقارنة بين الثورة العرابية ، وثورة ٢٣ يوليو لا ينبغى أن نغفل عاملا كبير الأهمية ، وله أثره فى فشل الثورة العرابية ؛ وهو تأثير الخيانة ، ولا أعنى فى هذا المجال خيانة الخديو توفيق وبطانته ، فهذا أمر مفروغ من أثره ، ولكنى أقصد الخيانة العسكرية ، فقد استطاع الإنجليز أن يرشوا قلة من ضباط الجيش المصرى وعلى رأسهم الأميرالاى « على خنفس » وإن ضابطاً له مثل هذه الرتبة الكبيرة ، ويعرف بالطبع أدق الأسرار الحربية يستطيع الإنجليز أن ينتفعوا به انتفاعاً كبيراً ، وسبق أن ذكرنا أن هذه الخيانات الدنيئة أدت إلى فشل الهجوم المصرى على القصاصين ، ولولا الخيانة لكتب لهذا الهجوم النصر المبين ، بل ربما تغير له تاريخ مصر .

القومية العربية :

والحقيقة الواضحة من مئات السنين أن مصر جزء من الأمة العربية ؛ وأن مصالحها ترتبط بمصالح سائر البلاد العربية ونبين هنا مدى علاقة كل من الثورتين بالدول العربية ومدى تأثير هذه العلاقة فى كل منهما .

كانت مصر فى عهد الثورة العرابية تعتبر إحدى الولايات التركية ، وكذلك كل من سوريا والأردن وسائر الأقطار العربية وتحت ظلال النفوذ التركى كان من الصعب أن تقوم علاقات وثيقة بين الدول العربية ؛ ولذلك فإن الحركات التحررية التى تظهر فى أى أمة من الأمم العربية كانت منفصلة تماماً عن الأخريات ، وإن اتفقت جميعاً فى الأهداف والأغراض نتيجة للظروف الواحدة التى تعيش فيها هذه الأمم .

وللزعيم الشرقى العظيم جمال الدين الأفغانى جهاد كبير من أجل توحيد السياسة التحررية فى كل من الدول العربية والشرقية حتى تواجه الاستعمار قوة واحدة ، وكان جمال الدين الأفغانى دائم التنقل بين مختلف البلاد العربية ليثبت فيها أفكاره الوطنية ، فكان بذلك حلقة اتصال هامة بين شعوب هذه الأمم.

والواقع أن البلاد العربية كانت فى حاجة شديدة إلى بعث القومية العربية ، وإلى اتحاد شامل للثورات التحررية فى كل منها ؛ لأنها فضلا عن وقوعها فى منطقة النفوذ التركى كانت تواجه خطراً جديداً وهو اتجاه أطماع الغرب الاستعمارية إليها . وكان الدور الأكبر لتوحيد الحركات التحررية يجب أن يقع على عاتق زعماء الثورة العرابية ؛ لأن إمكانيات مصر أكبر من إمكانيات أى دولة عربية أخرى ، كما أن الثورة فيها تقدمت إلى حد بعيد عن سائر الثورات العربية . ولكن إذا حللنا موقف الثورة العرابية وجدانا أنها فى أول عهدها كانت تعتمد على رضاء سلطان تركيا الظاهرى فى صراعها مع الخديو توفيق ، وكانت أية محاولة لاتصالها بالثورات العربية الأخري وتوحيد الكفاح بينها باعثاً لأن يسحب السلطان تأييده الظاهري لها وينضم كلية للخديو ؛ لأن الثورات العربية الأخرى ثورات مباشرة على سلطان تركيا . أما الثورة العرابية فكان ظاهرها أنها ثورة على استبداد الخديو ولا شأن لها بالسلطان التركى ؛ ولذلك فإن اتحاد الكفاح بين الثورة العرابية وثورات الشعوب العربية يعنى عصيان زعماء هذه الثورة للسلطان . وقد كان لهذا السبب بعض الأثر فى ضعف القومية العربية .

أما في عهد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فإن الدول العربية

كانت تقريباً تحت ظروف واحدة نتيجة لتطور متماثل لظروف متماثلة، فالاستعمار الغربى استطاع أن يحل مكان الاستعمار التركى فى كل منها . ثم إن كلا من الشعوب العربية له سلسلة طويلة متشابهة من الثورات الوطنية للتخلص من هذا الاستعمار ، كما أن التطور والمدنية الحديثة سهلت الاتصال بين الشعوب العربية إلى درجة كبيرة ، وجعلتهم شعباً واحداً يحس نفس المشاعر وله نفس الأهداف .

وقد أخذت ثورة ٢٣ يوليو على عاتقها مهمة جليلة ؛ وهى أن توحد فى الكفاح بين كل من الأمم العربية ، خصوصاً وأن لهم عدواً مشتركاً هو الاستعمار وصنيعته إسرائيل .

وكان تحقيق هذه المهمة يتطلب جهوداً عظيمة ؛ لأن بعض هذه الدول يسيطر عليها الاستعمار سيطرة داخلية شديدة كالأردن والعراق ، ولكن بالرغم من هذا ، وبالرغم من أن حكومات هذه البلاد كانت عقبة فى سبيل الكفاح العربى الموحد ، فإن حكومة الثورة لم تيأس ، ولم توقف جهودها بل اتجهت إلى الشعوب العربية مباشرة عن طريق الإذاعة والصحف وغيرها من الوسائل .

وقد شرعت حكومة الثورة المصرية فى مباحثة الحكومات

العربية المتحررة من أجل تحقيق الوحدة الشاملة على مراحل تدريجية ، وقد تمت المرحلة الأولى بنجاح كبير ، وذلك بتوحيد الثقافة العربية فى هذه الدول . وتلت هذه المرحلة الوحدة العسكرية بين مصر وسوريا ، كما أن التعاون الاقتصادى بين البلاد العربية يسير حثيثاً ليكوّن الوحدة الاقتصادية فى القريب العاجل .

وكان من نتائج هذه السياسة العربية الجديدة أن قدمت مصر المساعدات الكثيرة لكل من الشعوب العربية التى تقاوم الاستعمار وتحارب فى سبيل استقلالها مثل شعب الجزائر وشعب اليمن ، وقد ظهرت آثار التكتل العربى واضحة فى أثناء الاعتداء الثلاثى على مصر ، وكان للقومية العربية دورها الهام فى انتصار الشعب المصرى ، وقد مرّ بك طرف من ذلك .

الظروف الخارجية :

سبق أن قلنا إن التاريخ يعيد نفسه وذلك فى مجال الحديث عن مدى التشابه بين الثورة العرابية والثورة المصرية الحديثة ، غير أن هناك عاملا مهماً يحد من التشابه بين أحداث الثورتين فلا يجعل الثانية تتكرر على نمط الأولى وبنفس صورتها ، ذلك العامل هو اختلاف الظروف الخارجية التى تحيط بكل

من الثورتين ؛ فإن العصر الذى تعيش فيه الثورة المصرية الحديثة يحيطها بظروف خارجية خاصة لم تتوافر فى عصر الثورة العرابية : ففى عهد الثورة العرابية كانت انجلترا وفرنسا أقوى دولتين من الناحية الاقتصادية والعسكرية، وكان التنافس بينهما فى استعمار الدويلات الأوربية قد انتهى من زمن طويل ، واتجه تفكيرهما الاستعمارى إلى الدول الشرقية الغنية بمواردها وخاماتها . ولما كانت البلاد الشرقية من الضخامة والاتساع بحيث تكفى الأطماع الاستعمارية لكل من الدولتين لم يكن هناك داع لوجود التنافس بينهما ، بل كان هناك اتفاق ودى لتقسيم البلاد الشرقية إلى مناطق نفوذ ، فمثلا مصر والهند مناطق نفوذ لبريطانيا ، وتونس والجزائر مناطق نفوذ لفرنسا . ونستطيع أن نقول إن تخلف الحضارة فى البلاد الشرقية كان عاملا مشجعاً للاستعمار الغربى ، كما أنه فيما بعد كان المبرر الظاهرى لاستمرار الاستعمار . وأمام احتكار هاتين الدولتين السياسية العالمية ، لم تجد الثورة العرابية أى تأييد خارجى فى كفاحها ضد الاستعمار والتدخل الأجنبى .

وبتطور الزمن أخذت هذه الظروف تتغير بالتدريج ، فالحضارة بدأت تتقدم فى آسيا وأفريقا ، وبتقدم الحضارة أخذ الوعى الوطنى يشتد ويقوى فى البلاد الشرقية ، فبدأت

توحد سياستها ، وتتكتل لمواجهة الاستعمار الغربى بشتى صوره الاقتصادية والسياسية والعسكرية . وكان من نتائج ذلك أن ظهرت الكتلة الآسيوية الأفريقية ، وكان لها أثرها الهام فى السياسة العالمية ، وهذه الكتلة تضم الدول التى استطاعت أن تتحرر وتحصل على استقلالها فى كل من إفريقيا وآسيا ، مثل مصر ، والسودان ، والهند ، والصين ، وسيلان ، وأندونيسيا ، وسوريا ، وغيرها من الدول التى كانت تحت سيطرة الاستعمار . وقد أخذت هذه الكتلة تعمل على مقاومة الاستعمار وسيطرته ، وتساعد البلاد المحتلة فى المطالبة بحريتها واستقلالها وحين استهدفت مصر للحصار الاقتصادى الغربى عقب تأميم قناة السويس وجدت فى المساعدات الاقتصادية والمعنوية التى قدمتها الكتلة الآسيوية الإفريقية ما مكنها من مقاومة الضغط الغربى . كما قاومت هذه الكتلة الاعتداء الثلاثى على مصر مقاومة فعالة ، فإن الهند قد هددت بالخروج من الكومنولث البريطانى ، وقررت الصين إرسال متطوعين للقتال إلى جانب القوات المصرية إذا ما طلبت مصر ذلك .

وقد كان لظهور المعسكر الاشتراكى — وهو يضم دول الكتلة السوفيتية — كقوة هائلة على مسرح السياسة العالمية أثر كبير ؛ فقد قضى على بقايا الاحتكار الغربى للسياسة العالمية .

وذلك نتيجة لتوازن القوى بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الرأسمالى ، وتبعاً لهذا فإن المعسكر الاشتراكى يقاوم أية محاولة من جانب الدول الغربية للسيطرة على منطقة الشرق الأوسط ؛ لأن فى ذلك قلباً لميزان القوى لصالح المعسكر الغربى .

وقد كان ظهور المعسكر الاشتراكى عاملا مهماً فى صالح الثورة المصرية الحديثة ؛ لأن دول المعسكر الاشتراكى وخاصة روسيا قدمت لمصر الكثير من المساعدات الاقتصادية والعسكرية ، كما ساعدتها بتأييدها السياسى منذ نشأتها ، وذلك حتى تستطيع مقاومة النفوذ الغربى .

وقد ظهر تأييد الكتلة السوفيتية لمصر بصورة واضحة فى الفترة الحرجة من تاريخ الثورة عقب تأميم قناة السويس ؛ فقد وقفت إلى جانب مصر فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، كما أن روسيا وجهت إنذارها إلى كل من الدول التى اشتركت فى الاعتداء المسلح على مصر .

ومن الظروف الخارجية الهامة ظهور الوعى العام العالمى ، أو ما يسمى بالرأى العام العالمى فالشعوب فى مختلف الدول — نتيجة للتطور العظيم فى المدنية والحضارة — بدأت تستنكر السياسة الاستعمارية ، وتؤمن بمبدأ حق تقرير المصير ، كما أنها أخذت تنظر بعطف إلى كل الشعوب التى تكافح فى سبيل

حريتها واستقلالها وتقدم لها تأييدها الأدبى ، ومن آثار الوعى العالم العالمى أن وقفت إلى جانب مصر فى الأمم المتحدة ثلاث وستون دولة وذلك فى خلال العدوان الثلاثى ، وبالرغم من أن من بين هذه الدول عشرات ترتبط ببريطانيا وفرنسا اقتصادياً وسياسياً فإنها اضطرت تحت ضغط الرأي الشعبى فيها والذى يكون جزءاً من الرأى العام العالمى أن تؤيد مصر .

وباستعراض هذه الظروف الخارجية ومقارنتها فى كل من الثورتين نجد أنها فى صالح الثورة المصرية الحديثة إلى أبعد حد

وبالرغم من فشل الثورة العرابية فإنه من الخطأ الكبير أن نظن أنها لم تفد مصر كثيراً ، وأن فائدتها اقتصرت على الإصلاحات التى حدثت فى عهدها ؛ فالثورة العرابية كما بينت من قبل هى بداية النهضة المصرية التى ظهرت فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وهى أكبر خطوة خطاها الشعب المصرى فى طريق التحرر السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، وأن ثورتى الشعب فى سنة ١٩١٩ وفى سنة ١٩٣٥ ما هما إلا خطوتان أخريان بعد الثورة العربية للوصول إلى نهضة كبرى شاملة .

فنحن إذن مدينون فى نهضتنا الحالية للثورة العرابية ، ولجهود الشعب العظيمة فى عهدها وكفاحه المجيد .

يصدر قريبًا

الكتاب الخامس
من
مكتبة
الثقافة
الشعبية

نظرات على عالم اليوم

تأليف : الرئيس تيتو . ترجمة : عبدالمنعم حسين

- نظرات سديدة للرئيس تيتو في العلاقات الدولية وأثر الدول المحايدة في توطيد أركان السلام .
- يقول عن مصر إنها : حصن التحرير ومعقل الاستقلال في إفريقيا والشرق الأوسط .

عدد ممتاز

١٥ مع باعة الصحف والمكتبات

دار المعارف للطباعة والنشر

س.ت ٥٢١٢١

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة